

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوي
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .
وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة إبراهيم - عليه السلام - ، توخيت فيه
أن يكون تفسيراً تحليلياً ، خالياً من الآراء السقيمة ، والأقوال الضعيفة .
والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

بالمدينة المنورة في ٢٨ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ ٢٤/١١/١٩٨١ م -

المؤلف

محمد سيد طنطاوي

تعريف بسورة إبراهيم - عليه السلام -

١ -- سورة إبراهيم - عليه السلام - هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول ، فقد كان بعد سورة نوح - عليه السلام - . وقد ذكر السيوطي قبلها سبعين سورة من السور المكية^(١) .

٢ - وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية في المصحف الكوفي ، وإحدى وخمسون في البصري ، وأربع وخمسون في المدني ، وخمس وخمسون في الشامي .

٣ - وسميت بهذا الاسم ، لاشتغالها على الدعوات الطيبات التي تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، ولا يعرف لها اسم آخر سوى هذا الاسم .

٤ - وجمهور العلماء على أنها مكية ، وليس فيها آية أو آيات غير مكية .

وقال الآلوسي : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة . والظاهر أنهما أرادا أنها كلها كذلك ، وهو الذي عليه الجمهور .

وأخرج النحاس في ناسخه عن الخبر أنها مكية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بالمدينة وهما قوله - تعالى - : ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، فإنهما نزلتا في قتلى بدر من المشركين . . . ،^(٢)

وسرى عند تفسيرنا هاتين الآيتين ، أنه لم يقم دليل يعتمد عليه على أنهما مديتان ، وأن السورة كلها مكية كما قال جمهور العلماء .

• - هذا ، وبمطالعتنا لهذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل نراها في مطلعها

(١) راجع الإتيان في علوم القرآن - ١ ص ٢٧ . تحقيق محمد أبي الفضل

إبراهيم .

(٢) تفسير الآلوسي ج ١٣ ص ١٦١ طبعة منير الدمشقي .

تحدثنا عن وظيفة القرآن الكريم ، وعن جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن سوء عاقبة الكافرين ، وعن الحكمة في إرسال كل رسول بلسان قومه قال - تعالى - : الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ..

وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدي لمن يشاء وهو العزيز الحكيم .

ثم نراها بعد ذلك تحدثنا عن طرف من رسالة موسى - عليه السلام - مع قومه ، وعن أخبار بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وعن نماذج من المحاورات التي دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم .

قال - تعالى - : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ...

ثم تضرب السورة الكريمة بعد ذلك مثلا لأعمال الكافرين ، وتصور أحوالهم عندما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ، وتحكى ما يقوله الشيطان لهم في ذلك اليوم ... فتقول :

مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ...

وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا ... وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم .

ثم تسوق السورة مثلا آخر لكلمتي الإيمان والكفر فنقول : ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ...

ثم تحكى ألوانا متعددة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلو قدرته ونعمه على عباده فتقول :

« الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاكم ، وسخر لكم الفلك لتجروا في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار »

ثم تسوق بعد ذلك تلك الدعوات الصالحات الجامعات لأنواع الخير ، والتي تضرع بها إبراهيم إلى ربه فتقول :

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلداً آمناً واجنبنى وبنى أبى عبد الأصنام »

رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى والمؤمنين يوم يقوم الحساب . .

ثم يختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بآيات فيها مافيها من أنواع العذاب الذى أعده للظالمين ، وفيها مافيها من ألوان التحذير من السير فى طريق الكافرين والجاحدين فيقول :

ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مطمئنين مقنعين رموسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفندتهم هواء هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكروا أولوا الألباب . .

٦ - ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت بأمور من أبرزها ، ايلي :

(١) تذكير الناس بنعم خالقهم عليهم ، وتحريمهم على شكر هذه النعم ، وتحذيرهم من جحودها وكفرها ...

ومن الآيات التى وردت فى هذه السورة فى هذا المعنى قوله - تعالى - : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد . . »

وقوله - تعالى - : ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار . .

وقوله - تعالى - : وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظالم كفار . .

(ب) تسليمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه من مشركي قريش ، تارة عن طريق ما لقيه الأنبياء السابقون من أقوامهم ، وتارة عن طريق بيان أن العاقبة للمتقين .

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنبي شك ، ما تدعوننا إليه مريب

وقوله - تعالى - : وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم

(ج) اشتمال السورة الكريمة على أساليب متعددة للترغيب في الإيمان ، وللتحذير من الكفر ، تارة عن طريق ضرب الأمثال ، وتارة عن طريق بيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وتارة عن طريق حكاية ما سيقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، وما سيقوله الضعفاء للذين استكبروا ، وما سيقوله الظالمون يوم يرون العذاب ...

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . .
وقوله - تعالى - : فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . .

وقوله - تعالى - : « وأفذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وفتبع الرسل ... »

هذه بعض الموضوعات التي اهتمت السورة بإبرازها وبتركيز الحديث عنها ، وهناك موضوعات أخرى عنتت السورة بتفصيل الحديث عنها ، وبراها المتدبر لآياتها ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

(التفسير)

قال الله تعالى : « الر » كتابٌ أنزلناه إليك لتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) .

سورة إبراهيم - عليه السلام - من السور القرآنية التي افتتحت بحرف من الحروف المقطعة وهو قوله - تعالى - « الر » .

وقد سبق أن ذكرنا آراء العلماء في هذه الحروف عند تفسيرنا لسور : آل عمران والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعاندين والمعارضين في أن القرآن من عند الله ، هاكم القرآن تروفة مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف اللفظية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاؤا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، فإن لم تستطيعوا فهاؤا عشر سور من مثله ، فإن عجزتم فهاؤا سورة واحدة من مثله .

قال - تعالى - : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، (١) » .

وقوله « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، تنويه بشأن القرآن الكريم ، وبيان للغرض السامى الذى أنزله الله - تعالى - من أجله .

والظلمات : جمع ظلمة ، والمراد بها : الكفر والضلال ، والمراد بالنور : الإيمان والهداية .

والباء فى « بإذن ربهم ، للسببية ، والجار والمجرور متعلق بقوله « لتخرج ، والصراط : الجادة والطريق ، من شرط الشيء إذا ابتلعه ، وسمى الطريق بذلك ، لأنه يتطلع المارين فيه ، وأبدلت سينه صاداً على لغة قريش .

والمعنى : هذا كتاب جليل الشأن ، عظيم القدر ، أنزلناه إليك يا محمد ، لكل تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة والضلال ، إلى نور الإيمان والعلم والهداية ، وهذا الإخراج إنما هو بإذن ربهم ومشيئته وإرادته وأمره . وقوله « إلى صراط العزيز الحميد ، بدل من قوله « إلى النور » .

أى : لتخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال ، إلى طريق الله « العزيز ، أى : الذى يقرب ولا يقرب ، الحميد ، أى : المحمود بكل لسان .

وأسند - سبحانه - الإخراج إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - باعتباره المبلغ لهذا الكتاب المشتمل على الهداية التى تنقل الناس من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجهالة إلى الهداية وشبه الكفر بالظلمات - كما يقول الإمام الرازى - ؛ لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية ، وشبه الإيمان بالنور ، لأنه نهاية ما ينجلي به طريق هدايته (٢) .

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ . (٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٧٢

وفي جمع : الظلمات ، وإفراد : النور ، إشارة إلى أن الكافر طرق كثيرة ،
وأما الإيمان فطريق واحد .

وقوله - سبحانه - : ياذن ربهم ، احتراس لبيان أن ثقل الناس من حال
إلى حال إنما هو بإرادة الله - تعالى - ومشيئته ، وأن الرسول ما هو إلا مبلغ
فقط ، أما الهداية فمن الله وحده .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : الله الذي له ما في السموات
وما في الأرض . . . ،

أى : الله - تعالى - وحده هو الذي له ما في السموات وما في الأرض
ملكاً وملكاً وخلقا لا يشاركه في ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع .

ولفظ الجلالة قرأه الجمهور بالجر على أنه بدل أو عطف بيان من العزيز
الحميد .

وقرأه نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : هو الله
الذي له ما في السموات وما في الأرض .

وجملة : وويل للكافرين من عذاب شديد ، تهديد ووعيد لمن كفر بالحق
وأعرض عنه .

ولفظ : ويل ، مصدر لا يعرف له فعل من لفظه مثل : ويح ، وجاء
مرفوعاً للدلالة على الثبات والدوام ، ومعناه : الهلاك أو الفضيحة أو الحسرة ،
أى ، الله - تعالى - هو الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وويل للكافرين
بما أنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - من عذاب شديد سينزل بهم ، فيجعلهم
يستغيثون دون أن يجدوا من يغنيهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء الكافرين بجملة من الصفات الذميمة ، التي
أردتهم وأهلكتهم فقال - تعالى - : الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة
ويصدون عن سبيل الله ، ويبخونها عوجاً . . . ،

ويستحبون : بمعنى يحبون ، فالسين والتاء للتأكيد ، أى : يختارون ويؤثرون ولذا عداه بعلى .

أى : يختارون شهوات الحياة الدنيا ، ويؤثرون لذائذها ومتعها على الدار الآخرة وما فيها من نعيم وخيرات ...

و « ويصدون » ، من الصد ، وهو صرف الغير عن الشيء ومنعه منه . يقال : صد فلان فلانا عن فعل الشيء ، إذا منعه من فعله .

وسبيل الله : طريقه الموصلة إليه وهي ملة الإسلام .

ويبغون من البغاء - بضم الباء - بمعنى الطلب . يقال : بغيت لفلان كذا ، إذا طلبته له ، وبغيت الشيء أبغيته بغاء وبغى وبغية إذا طلبته .

والعوج - بكسر العين وفتحها - مصدر عوج - كتعب . إلا أن بعضهم يرى أن مكسور العين يكون فيما ليس يمرئى كالآراء والأقوال والعقائد ، وأن مفتوحها يكون فى المرثيات كالأجساد والمحسوسات .

أى : أن هؤلاء الكافرين يؤثرون شهوات الدنيا على الآخرة ونعيمها ، ولا يكتفون بذلك بل يضعون العراقيل فى طريق دعوة الحق حتى يبتعد الناس عنها ، ويطلبون لها العوج والميل تبعاً لزيغ نفوسهم ، مع أنها أقوم طريق ، وأعدل سبيل . والضمير المنصوب فى قوله « يبغونها » يعود إلى سبيل الله . أى يبغون لها العوج ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير ، كما فى قوله « وإذا كالوهم ... » ، أى : كالوا لهم .

وقوله « عوجا » مفعول به ليبغون .

وبعضهم جعل الضمير المنصوب فى « يبغونها » وهو الهاء هو المفعول ، وجعل « عوجا » حال من سبيل الله أى : ويريدونها أن تكون فى حال اعوجاج واضطراب . وقوله : « أولئك فى ضلال بعيد » بيان للحكم العادل الذى أصدره - سبحانه - عليهم .

أى : أولئك الموصوفون بما ذكر في ضلال بعيد عن الحق .
والإشارة بأولئك الدالة على البعد ، للتنبيه على أنهم أحرى بما وصفوا
به بسبب تلبسهم بأقبح الخصال ، وأبشع الرذائل .
وعبر بفي الظرفية للدلالة على تمكن الضلال منهم ، وأنه محيط بهم كما يحيط
الظرف بالمظروف .

قال الآلوسى : وفي الآية من المبالغة في ضلالهم ما لا يخفى ، حيث أسند
فيها إلى المصدر ما هو لصاحبه مجازا كجد جده

ويجوز أن يقال : إنه أسند فيها ما للشخص إلى سبب انصافه بما وصف
به ، بناء على أن البعد في الحقيقة صفة له باعتبار بعد مكانه عن مقصده ، وسبب
بعده ضلاله ، لأنه لو لم يضل لم يبعد عنه ، فيكون كقولك : قتل فلانا
عصيانه ، والإسناد مجازي ، وفيه المبالغة المذكورة أيضا (١) .

ثم بين - سبحانه - هنة أخرى من منته على عباده فقال : وما أرسلنا من
رسول إلا بلسان قومه أيبين لهم

قال الإمام الرازي ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في أول السورة
كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور كان هذا
إتماما على الرسول ، من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعاما
على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلاصهم من ظلمات الكفر

ثم ذكر في هذه الآية ما جرى مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين :
أما بالنسبة إلى الرسول ، فلأن بعثته كانت إلى الناس عامة

وأما بالنسبة لعامة الخلق ، فلأنه - سبحانه - ما بعث رسولا إلى قوم

إلا بلسانهم . . . ، (١) والباء في قوله ، بلسان ، للملابسة ، والمراد باللسان :
اللغة التي يتخاطب بها الرسول مع قومه .

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسولا من الرسل
إلى قوم من الأقرام ، إلا وكانت لغته كلقتهم ، لكي يتيسر لهم أن يفهموا
عندما يريد أن يبلغهم إياه من الأوامر والنواهي . . .

قال ابن كثير : هذا من لطفه - تعالى - بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا
منهم بلغتهم ليفهموا عنهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم ، كما قال
الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، عن عمر بن ذر قال : قال مجاهد : عن أبي ذر قال : قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لم يبعث الله - عز وجل - نبيا إلا
بلغه قومه ، » (٢) .

وقال ضاحب الكشاف : فإن قلت : لم يبعث رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعا ، وهم على السنة مختلفة .
فإن لم تكن للعرب حجة ، فلغيرهم الحجة . وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو
نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة - أيضا - . قلت : لا يخلو إما أن ينزل
بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة
تنوب عن ذلك وتمكفي التطويل ، فبقي أن ينزل بلسان واحد . فكان أولى
الألسنة لسان قوم الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنهم أقرب إليه .

فإذا فهموا عنده وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانه
وتفهمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ،
مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة ، والأجيال المتفاوتة على كتاب

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٩ ص ٧٩

واحد ، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والاختلاف ... ، (١) وقال الشوكاني : ما ملخصه ، وقد قيل في هذه الآية إشكال ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم - أرسل إلى الناس جميعا ، ولغاتهم متباينة ...

وأجيب : بأنه - صلى الله عليه وسلم - وإن كان مرسلًا إلى الثقليين ، لكن لما كان قومه العرب ، وكانوا أخص به وأقرب إليه ، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم ، وهم يبيّنونه لمن كان على غير لسانهم . ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم ، وبينه الرسول لكل قوم بلسانهم ، لكان ذلك مظنة الاختلاف ، وفتحًا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدعى من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها ،

وربما كان ذلك - أيضا - مفضيا إلى التحريف والتصحيف ، بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون ، (٢) .

وجملة « فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » مستأنفة .

أى : فيضل الله من يشاء لإضلاله ، أى يخلق فيه الضلال لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه ، ويهدي من يشاء هدايته ، لاراد لمشيئته ، ولامعقب لحكمه . وهو ، سبحانه ، العزيز ، الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم ، فى كل أفعاله وتصرفاته .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : ونفريع قوله « فيضل الله من يشاء .. الخ » ، على مجموع جملة « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ، ولذلك جاء فعل « يضل » مرفوعا غير منصوب ، إذ ليس عطفًا على

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ١٤ .

فعل « ليبين » ، لأن الإضلال لا يكون معلولا للتبيين ولكنه مفرع على الإرسال الماعل بالتبيين .

والمعنى : أن الإرسال بلسان قومه لعلته التبيين . وقد يحصل أثر التبيين بمعرفة الاهتداء ، وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المابين لهم ، (١) .

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد بينت وظيفة القرآن الكريم ، ووظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كتوعدت الكافرين بسوء المصير إذا ما استمروا في كفرهم وغيهم ، كما وضحت بعض مظاهر قدرة الله - تعالى - واطفءه بعباده ، وفضله عليهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن رسالة موسى - عليه السلام - كانت أيضا - لإخراج قومه من الظلمات إلى النور ، ولتذكيرهم بنعم خالقهم عليهم ، وبغضاه عنهم ، فقال تعالى :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (٥) وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبجون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء لمن ربكم عظيم (٦) » وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد (٧) وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا ، فإن الله لغني حميد (٨) .

قال الامام الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما بين أنه أرسل محمدا - صلى الله

(١) تفسير التحرير والتنوير > ١٣ ص ٨٨؛ للشيخ الفاضل ابن عاشور .

(٢) - سورة إبراهيم

عليه وسلم إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه في ذلك الإرسال وفي تلك البعثة ، اتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم ، وكيفية معاملتهم أقوامهم معهم . تصبيراً له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وبدأ - سبحانه - بقصة موسى فقال : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومه من الظلمات إلى النور » (١) .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، بن يصر ، ابن ماهيث . . . وينتهي نسبة إلى لاوى بن يعقوب عليه السلام .

وكانت ولادة موسى - عليه السلام - في حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد والمراد بالآيات في قوله . بآياتنا ، الآيات التسع التي أيدها الله تعالى بها قال تعالى ، « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات . . » (٢) .

وهي : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والجذب - أى فى بوادئهم ، والنمص من الثراب - أى فى مزارعهم .

قال - تعالى - « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين : ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » (٣) .

وقال - تعالى - « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات » (٤) .

وقال - تعالى - « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » (٥) .

(١) تفسير الفخر الرازى . > ١٥ ص ٨٣ .

(٢) سورة الاسراء الآية ١٠١ .

(٣) سورة الاعراف الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٤) سورة الاعراف الآية ١٣٠ .

(٥) سورة الاعراف الآية ١٣٣ .

ومنهم من يرى أنه يصح أن يراد بالآيات هنا آيات التوراة التي أعطاهما الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ، أي : ملتبساً بها . وهي كما أخرج ابن جرير وغيره ، عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير ، الآيات التسع التي أجراها الله على يده - عليه السلام - . وقيل : يجوز أن يراد بها آيات التوراة (١) .

ويبدو لنا أنه لا مانع من حمل الآيات هنا على ما يشمل الإيات التسع ، وآيات التوراة ، فالكل كان لتأييد موسى - عليه السلام - في دعوته .

و « أن ، في قوله ، أن أخرج قومك ، تفسيرية بمعنى أي ، لأن في الإرسال معنى القول دون حروفه .

والمراد بقومه : من أرسل لهدايتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وهم : بنو إسرائيل وفرعون وأتباعه .

وقيل : المراد بقومه : بنو إسرائيل خاصة . ولا نرى وجها لهذا التخصيص ، لأن رسالة موسى - عليه السلام - كانت لهم وفرعون وقومه .

والمعنى : « وكما أرسلناك يا محمد لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسلنا من قبلك أخاك موسى إلى قومه لكي يخرجهم - أيضا - من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، فالغاية التي من أجلها أرسلت - أيها الرسول الكريم - هي الغاية التي من أجلها أرسل كل نبي قبلك ، وهي دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - . وخص - سبحانه - موسى بالذكر من بين سائر الرسل ، لأن أمنه أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة الإسلامية .

وأذكر - سبحانه - الأخبار عن إرسال موسى بلام القسم وحرف التحقيق

(١) تفسير الألوسي > ١٣ ص ١٦٨ ،

قد ، لتنزيل المنكرين لرسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - منزلة من ينكر رسالة موسى - عليه السلام - وقوله - تعالى - « وذكرهم بأيام الله ، معطوف على قوله « أن أخرج قومك » ،

والتذكير : إزاله نسيان الشيء ، وعدى بالبساء لتضمينه معنى الانذار والوعظ : أى ذكرهم تذكير عظة بأيام الله .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بأيام الله : نعمه وآلاؤه .

قال ابن كثير : قوله « وذكرهم بأيام الله » ، أى : بأياديه ونعمه عليهم ، فى إخراجهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمة ، وإنجائهم من إياهم من عدوهم ، وقلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإزاله عليهم المن والسلوى .. (١) ،

ومنهم من يرى أن المراد بها : نعمه وبأساؤه .

قال صاحب الكشاف : قوله « وذكرهم بأيام الله » ، أى : وأنذرتهم بوقائمه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كما وقع على قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها . كيوم ذى قار ، ويوم الفجار ، وهو الظاهر ، (٢) . ومنهم من يرى أن المراد بها ما يشمل أيام النعمة ، وأيام النعمة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : أما قوله « وذكرهم بأيام الله » ، فاعلم أنه - تعالى - أمر موسى فى هذا المقام بشيئين أحدهما أن يخرجهم من الظلمات إلى النور . والثانى : أن يذكرهم بأيام الله ...

ويعبر عن الأيام بالوقائع العظيمة التى وقعت فيها ... وتلك الأيام نداولها بين الناس ، .

فالمعنى : عظمهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد ،

(١) تفسير الألوسى > ١٣ ص ١٦٨

(٢) تفسير الكشاف > ٢ ص ٢٦٧ .

أن يذكرهم بنعم الله عليهم وعلى من قبلهم من آمن بالرسول . . . والترهيب والوعيد . أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه من كذب الرسل من الأهم السالفة . . .

ثم قال : واعلم أن أيام الله في حق موسى - عليه السلام - منها ما كان أيام المحنة والبلاء ، ومر الأيام التي كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون . ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى عليهم . . . (١)

وقال الآلوسی قوله « وذكرهم بأيام الله ، أي : بنعمائه وبلائه ، كما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - واختاره الطبري ، لأنه الأنسب بالمقام والأوفق بما سيأتي من الكلام ، (٢) .

وما ذهب إليه الإمامان الزاوي والآلوسی ، هو الذي تسكن إليه النفس ، لأن الأيام كلها وإن كانت لله ، إلا أن المراد بها هنا أيام معينة ، وهي التي برزت فيها السراء أو الضراء بروزاً ظاهراً ، كانت له آثاره على الناس الذين عاشوا في تلك الأيام .

وبنو إسرائيل - على سبيل المثال - مرت عليهم في تاريخهم الطويل ، أيام غمروا فيها بالنعم ، وأيام أصيبوا فيها بالنقم .

فالمنى : ذكر يا موسى قومك بنعم الله لمن آمن وشكر ، وبنقمه على من حجه وكفر ، لعل هذا التذكير يجعلهم يتوبون إلى رشدهم ، ويتبعونك فيما تدعوهم إليه .

واسم الإشارة في قوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ، يعود على التذكير بأيام الله .

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦٥ ص ٨٤ .

(٢) تفسير الآلوسی ١٣ ص ١٦٨ .

والصبار : الكثير الصبر على البلاء ، والصبر حبس النفس على ما يقتضيه الشرع فعلاً أو تركاً . يقال : صبره عن كذا يصبره إذا حبسه .

والشكور : الكثير الشكر لله - تعالى - على نعمه . والشكر : عرفان الاحسان ونشره والتحدث به . وأصله من شكرت الناقة - كفرح - إذا امتلأ ضرعها باللبن ، ومنه أشكر الضرع إذا امتلأ باللبن .

أى : إن فى ذلك التذكير بنعم الله ونعمه ، آيات واضحات ، ودلائل بينات على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . وعلمه وحكمته ، لكل إنسان كثير الصبر على البلاء ، كثير الشكر على النعماء .

وتخصيص الآيات بالصبار والشكور لأنهما هما المنتفعان بها وبما تدل عليه من دلائل على وحدانية الله وقدرته ، لا لأنها خافية على غيرهما ، فإن الدلائل على ذلك واضحة لجميع الناس .

و جمع - سبحانه - بينهما ، للإشارة إلى أن المؤمن الصادق لا يخلو حاله عن هذين الأمرين ففي الحديث الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، (١) .

وقدم - سبحانه - صفة الصبر على صفة الشكر ، لما أن الصبر مفتاح الفرج المقتضى للشكر ، أو لأن الصبر من قبيل الترك ، والتخليّة مقدمة على التخليّة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - قد أمثل أمر ربه فقال : « إذ قال موسى لقومه أذكروا نعمة الله عليكم ، إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، وينذجون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم ... » .

و إذ ، ظرف لما مضى من الزمان ، وهو متعلق بمحذوف تقديره أذكر .

والمراد بقوله : اذكروا نعمة الله عليكم ، : تذكروا بعقولكم وقلوبكم لتلك المنن التي امتن الله بها عليكم ، وقوموا بحقوقها ، وأكثرُوا من الحديث عنها بالاستتمك ، فإن التحدث بنعم الله فيه لإغراء بشكرها .

آل فرعون : حاشيته وخاصته من قومه . وفرعون : لقب لملك مصر في ذلك الوقت ، كما يقال لملك الروم قيصر ...

ويسومونكم من السوم وهو مطلق الذهب أو الذهب في ابتغاء الشيء ، يقال : سامت الإبل فهي سائمة . أي : ذهبت في المرعى وسام السلعة : إذا طلبها وابتغاه .

وساهه خسفا إذا أذله واحتقره وكلفه فوق طاقته :

ود سوء العذاب ، أشده . والسوء - بالضم - كل ما يدخل الحزن والغم على نفس الإنسان . وهو في الأصل مصدر ، ويؤنث بالألف فيقال السوءى .

وقرله : ويستحيون نساءكم ، من الاستحياء بمعنى الاستبقاء : يقال استحيا فلان فلانا أي : استبقاه : وأصله طلب له الحياة والبقاء .

والمعنى : وأذكر - أيها الرسول الكريم - أو أيها المخاطب وتمت أن قال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل الإرشاد والتوجيه إلى الخير : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، أي : داوموا على شكر الله ، فقد أسبغ عليكم نعماً كثيرة من أبرزها أنه - سبحانه - أنجىكم من آل فرعون الذين كانوا يصبون عليكم أشد العذاب وأفظعه ، وكانوا يذبجون أبناءكم الصغار ، ويستبقون نساءكم ...

وجعل - سبحانه - النجاة هنا من آل فرعون ولم يجعل منه ، مع أنه الأسر بتعذيب بنى إسرائيل للتنبية على أن حاشيته وبطانته كانت عوناً له في إذا قتهم سوء العذاب .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء . عفة وبة لبني إسرائيل ، لأن هذا الإبقاء عليهن كان المقصود منه الاعتماد عليهن ، واستعمالهن في الخدمة بالاسترقاق ، فبقاؤهن بعد فقد الذكور بقاء ذليل ، يعذب أليم ، تأباه النفوس الكريمة .

قال الألوسي : قوله : ود ويستحيون نساءكم ، أي : ويقتونهن في الحياة مع الذل ، ولذلك عد من جملة البلاء ، أولأن أبقاءهن دون البنين رزية في ذاته كما قيل :

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا^(١)

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء هنا : الأطفال الصغار ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث إن فرعون وآله ، كانوا يستعملونهم في الأعمال ائشاعة والحقيرة ، لأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال ، لما قامت أم موسى بإلقائه في البحر وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

وقال - سبحانه - هنا : يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ، لأن المقصود هنا تعداد المحن التي حلت ببني إسرائيل ، فكان المراد بجملة يسومونكم سوء العذاب ، نوعا منه ، وكان المراد بجملة ويذبحون أبناءكم ، نوعا آخر منه ، لذا وجب العطف ، لأن الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى ، وإنما هي تمثل نوعا آخر من العذاب الذي حل ببني إسرائيل .

بخلاف قوله - تعالى - في سورة البقرة : يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ، بدون واو العطف ، لأن الجملة الثانية بيان وتفسير للجملة الأولى . فيكون المراد من سوء العذاب في سورة البقرة تضييع الأبناء واستحياء النساء ،

(١) تفسير الألوسي > ١٣ ص ١٧٠ .

و اسم الإشارة في قوله ، وفي ذالكم بلاء من ربكم عظيم ، يعود إلى المذكور من النعم والنقم والبلاء : الامتحان والاختبار ، ويكون في الخير والشر . قال - تعالى - ، ونبلوكم بالخير والشر فتنة ، .

أى : وفي ذالكم العذاب وفي النجاة منه إمتحان عظيم لكم من ربكم بالسراء لتشكروا وبالضراء لتصبروا ، ولتقلعوا عن السيئات التي تؤدي بكم إلى الشقاء والهوان .

ثم حكى - سبحانه - أن موسى - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى سنة من سنن الله التي لا تتخلف فقال : ، وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ،

وقوله ، تأذن ، بمعنى آذن أى أعلم ، يقال : آذن الأمر وبالأمر أى : أعلمه . إلا أن صيغة التفعّل تفيد المبالغة في الإعلام ، فيكون معنى ، تأذن ، : أعلم لإعلاماً واضحاً بليغاً لا التباس معه ولا شبهة .

واللام في قوله ، لئن شكرتم ، موطئة للقسم . وحقيقة الشكر : الاعتراف بنعم الله - تعالى - واستعمالها في مواضعها التي أرشدت الشريعة إليها .
وقوله ، لأزيدنكم ، سادس جواب القسم والشرط .

والمراد بالكفر في قوله ، ولئن كفرتم ، كفر النعمة ووجودها ، وعدم نسبتها إلى رآهبها الحقيقي وهو الله - تعالى - كما قال قارون ، إنما أوتيته على علم عندي ، ، وعدم استعمالها فيما خلقت له ، إلى غير ذلك من وجوه الانحراف بها عن الحق .

وجملة ، إن عذابي لشديد ، دليل على الجواب المحذوف لقوله ، ولئن كفرتم ،
لإذ التقدير ولئن كفرتم لأعذبنكم ، إن عذابي لشديد .

قال الجبل : وإنما حذف هنا وصرح به في جانب الوعد ، لأن عادة أكرم

الأكرميين: أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد، (١).

والمعنى: واذكر أيها المخاطب وقت أن قال موسى لقومه: يا قوم إن ربكم قد أعلمكم إعلاما واضحا بليغا مؤكدا، بأنفسكم إن شكرتموه على نعمه، زادكم من عطائه وخيره ومنه، وإن جحدتم نعمه وغمظتموها واستعملتموها في غير ما يرضيه، محققا من بين أيديكم، فإنه - سبحانه - عذابه شديد، وعقابه أليم.

هذا، وقد ساق الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث الموجهة للشكر، والمحذرة من الجحود فقال:

« وقد جاء في الحديث الشريف: « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها - . أو حسن بها أي: رماها . قال: وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقال السائل: سبحان الله !! ثمرة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال للجارية: إذ هي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التي عندها، (٢).

ثم بين - سبحانه - أن موسى قد أخبر قومه أن ضرر كفرهم إنما يعود عليهم، لأن الله - تعالى - غنى عن العالمين فقال - تعالى - : « وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا ، فإن الله لغني حميد ، .

أي: وقال موسى - عليه السلام - لقومه، إن تجحدوا نعم الله أنتم ومن في الأرض جميعا من الخلائق، فلن تضروا الله - شيئا، وإنما ضرر ذلك يعود على الجاحد لنعمه، المنحرف عن طريقه، فإن الله - تعالى - لغني عن شكركم وشكرهم، مستحق للحمد من جميع المخلوقين طوعا وكرها .

(١) حاشية الجمل على الجلائين ج ٢ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٩ .

ويبدو من سياق الآية الكريمة أن موسى - عليه السلام - إنما قال لقومه ذلك ، بعد أن شاهد منهم علامات الاصرار على الكفر والفساد ، وترجح لديه أنهم قوم لا ينفخهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب ، ولمس منهم أنهم يمتنون عليه أو على الله - تعالى - بطاعتهم فأراد بهذا القول أن يزرعهم عن الإدلال بإيهانهم ، والمن بطاعتهم .

فالغرض الذي سبقته له الآية إنما هو بيان أن منفعة الطاعة والشكر والإيمان إنما تعود على الطائعين الشاكرين المؤمنين ، وأن مضرة الجحود والكفران إنما تعود على الجاحدين الكافرين .

أما الله - تعالى - فلن تنفخه طاعة المطيع ، وإن تضره معصية العاصي .

ففي الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ، (٦) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد زخرت بالتوجيهات القرآنية الحكيمة ، التي ساقها الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - وهو يعظ قومه ، وينذركم بأيام الله ، وبسنننه في خلقه ، وببنتاه عنهم . . .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من أحوال بعض الرسل مع أقوامهم ، ومن المحاورات التي دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم فقال - تعالى - :

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَفْقَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا نَزِدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عما كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصُـبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) » .

وقوله - سبحانه - : د ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود . . . ،

يرى بعض المفسرين أنه من تمة كلام موسى - عليه السلام - فيكون المعنى : أن موسى - عليه السلام - بعد أن ذكر قومه بأيام الله - تعالى - ، وبنعمة عليهم ، وبسنته - سبحانه - في خلقه ...

بعد كل ذلك شرع في تذكيرهم وتخويفهم عن طريق ما حل بالمكذابين من قبلهم ، فقال لهم - كما حكى القرآن عنه - : د ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ... ،

ومنهم من يرى أن الآية الكريمة كلام مستأنف ، والخطاب فيه لأمة
الرسول - صلى الله عليه وسلم - : فيكون المعنى :

أن الله - تعالى - بعد أن بين للناس أنه قد أنزل كتابه على رسوله - صلى
الله عليه وسلم - لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبين - سبحانه - أنه له مافى
السموات ومافى الأرض ، وهدد الكافرين بالعذاب الشديد ، وحكى ما قاله
موسى لقومه ...

بعد كل ذلك وجه - سبحانه - الخطاب إلى مشركى مكة وإلى كل من كان
على شاكلتهم فقال : « ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم ... » ،

قال الفخر الرازى مالمخصه : يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه ،
والمقصود منه أنه - عليه السلام - كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم .

ويجوز أن يكون مخاطبة من الله - تعالى - على لسان موسى لقومه : يذكركم
أمر القرون الأولى . والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين ،
وهذا المقصود حاصل على التقديرين ، إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء
مخاطبة لقوم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، (١) .

ومع أننا نؤيد الإمام الرازى فى أن المقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال
المتقدمين ، إلا أننا نميل مع الأكثرين إلى الرأى الثانى ، لأن قوم الرسول
- صلى الله عليه وسلم - هم المقصودون قصداً أولياً بالخطاب القرآنى ،
ولأن الإمام ابن كثير - رحمه الله - يرى أنه لم يرد ذكر فى التوراة لقوم
عاد وثمود ، فقد قال :

قال ابن جرير : هذا من تمام قول موسى لقومه ... وفيما قال ابن جرير
نظر والظاهر أنه خير مستأنف من الله - تعالى - لهذه الأمة ، فإنه قد قيل :
إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه

(١) تفسير الفخر الرازى > ١٩ ص ٨٨ طبعه دار الكتب العلمية - طهران .

لقصه عليهم . فلا شك حينئذ أن تكون هاتان القصتان في التوراة ، (١)

والاستفهام في قوله « ألم يأتكم . . . » ، للتقرير لأنهم قد بلغتهم أخبارهم ، فقوم نوح بلغتهم أخبارهم بسبب خبر الطوفان الذي كان مشهوراً بينهم ، وقدم عاد وثمود بلغتهم أخبارهم لأنهم من العرب ، وهما كنهم في بلادهم ، وهم يعمرون على ديار قوم صالح في أسفارهم إلى بلاد الشام للتجارة .

والمراد بالذين من بعدهم : أولئك الأقوام الذين جاءوا من بعد قوم نوح وعاد وثمود ، كقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم .

وقوله « لا يعلمهم إلا الله ، أي : لا يعلم عدد الأقوام الذين جاءوا بعد قوم نوح وعاد وثمود ولا يعلم ذواتهم وأحوالهم إلا الله تعالى .

وقوله « والذين من بعدهم ، مبتدأ ، وقوله « لا يعلمهم إلا الله ، خبره ، والجملة اعتراض بين المفسر - بفتح السين - وهو « نبأ الذين من قبلهم ، وتفسيره وهو « جاءتهم رسالهم بالبينات ، » .

والمعنى : لقد علمتم يا أهل مكة ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ، كما علمتم ما حل بالملكدين من بعدهم كقوم لوط وقوم شعيب ، وكغيرهم ممن لا يعلم أحوالهم وعددهم إلا الله - تعالى - وما دام الأمر كذلك فاعتبروا واتعظوا واتبعوا هذا الرسول الكرم الذي جاء لسعادتكم ، لكي تنجوا من العذاب الأليم الذي حل بالظالمين من قبلكم .

وجملة « جاءتهم رسالهم بالبينات ، مستأنفة في جواب سؤال مقدر . كأنه قيل ما قصة هؤلاء الأقوام وما خبرهم ؟

فكان الجواب : جاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات ، وبالمعجزات تظاهرات ، الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقوله « فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كنا كفرنا بما أرسلتم به . . . »

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٠

بيان لموقف الأقوام المكذبين من رسلهم الذين أرسلهم الله لهذا يتم .
 وانضمائر في « ردوا » و « أيديهم » رد أفواههم ، تعود على الأقوام
 الذين جاءتهم رسلهم بالبينات .
 وهذه الجملة الكريمة ذكر المفسرون في معانيها وجوها متعددة أوصلها
 بعضهم إلى عشرة أقوال .

منها : أن الكفار وضعوا أناملهم في أفواههم فعضوها غيظا وبغضا
 بما جاء به الرسل ، وقالوا لهم بغضب وضجر : أنا كفرنا بما أرسلتم به وبما جئتمونا
 به من معجزات ، فاغربوا عن وجوهنا ، وأنزكو ننا وشأننا .

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا الوجه الإمام ابن جرير ، فقد قال : وقوله :
 « فردوا أيديهم في أفواههم ... » ، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال
 بعضهم : معنى ذلك ، فعضوا على أصابعهم تغليظا عليهم في دعائهم لإبائهم إلى مادعوم
 إليه ... روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال الأخرى : وأشبه هذه الأقوال
 عندي بالصواب في تأويل هذه الآية ، القول الذي ذكرناه عن عبد الله
 ابن مسعود أنهم ردوا أيديهم في أفواههم ، فعضوا عليها غيظا على الرسل ، كما
 وصف الله عز وجل به إخوانهم من المنافقين فقال : « وإذا خلوا عضوا عليكم
 الأنامل من الغيظ ، فهذا هو الكلام المعروف ، والمعنى المفهوم من رد الأيدي
 إلى الأفواه ، (١) .

ومنها : أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواههم لإشارة منهم إلى أنفسهم
 وإلى ما يصدون عنها ، وقالوا للرسل على سبيل التحدي والتكذيب : أنا كفرنا
 بما أرسلتم به ، أي : لا جواب لكم عندنا سوى ما قلناه لكم بالسنتنا هذه .

(١) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ١٢٧ .

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا القول الإمام الألوسى ، فقد صدر
الأقوال التي ذكرها به ، فقال ماملخصه : قوله « فروا أيديهم في أفواههم »
أي : أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به « وقالوا ، لهم « إنا كفرنا بما
أرسلتم به » أي : على زعمكم ، وهي البيئات التي أظهروها حجة رسالتهم ،
ومرادهم بالكفر بها : الكفر بدلالاتها على صحة رسالتهم

ثم قال بعد أن ساق عدد من الأقوال : والذي يطابق المقام : وتشهد له
البلاغة - هو الوجه الأول ، ونص غير واحد على أنه الوجه القوي ، لأنهم
حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار - حيث جمعوا في الإنكارين : الفعل
والقول ، ولذا أتى بالفاء تنبيها على أنهم لم يتمهلوا ، بل عقبوا دعوتهم
بالتكذيب (١)

ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، وضعوا أيديهم على
أفواههم استهزاء وتعجبا .

وقد رجح هذا الوجه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقال وهذا التركيب
لا أعهد مثله في كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن : ومعنى « فردوا
أيديهم في أفواههم » .

يتمثل عدة وجوه أنها في الكشف إلى سبعة ، وفي بعضها بعد ، وأولها
بالاستخلاص أن يكون المعنى : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة
الضحك من كلام الرسل ، كراهية أن تظهر دواخل أفواههم ، وذلك تمثيل
لحالة الاستهزاء بالرسل ، (٢) .

ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، لم يردوا عليهم ، بل تركوهم
إهمالا لشأنهم .

(١) تفسير الألوسى > ١٣ ص ١٧٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير > ١٣ ص ١٩٦ .

وقد رجح الشوكاني هذا الاتجاه فقال ماملخصه : وقال أبو عبيدة - ونعم
ماقال - هو ضرب مثل . أى : لم يؤمنوا ولم يجيبوا . والعرب تقول للرجل إذا
أملك عن الجواب وسكت : قد رديده في فيه . وهكذا قال الأخفش .
وأعترض على ذلك القتيبي فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول : رديده في
فيه : إذا ترك ماأمر به ، وإنما المعنى عضوا على الأيدي حنقا وغيظا ...

فإن صح ما ذكره أبو عبيد والأخفش فتنفسير الآية به أقرب ... (١)
وهذه الأقوال جميعها وإن كانت تتفق في أن الآية الكريمة ، قد أخرجت
بأبلغ عبارة عما قابل به الأقوام المكذبون رسلمهم من سوء أدب ...
إلا أننا نميل إلى ماذهب إليه الإمام ابن جرير ، لأنه أظهر الأقوال في
معناها ، وقد استشهد له بعضهم بأشعار العرب ، ومنها قول الشاعر :

تردُّونَ لى فيه غشّ الحسو دِ . حتى يعضّ على الأَكُفَا

يعنى أنهم يعضون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه (٢) .

وقوله - سبحانه - « ولأنا لى شك بما تدعوننا إليه مريب » متطوفا على
قرله « إنا كفرنا بما أرسلتم به » .

ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت
به فعلا يوجب لديه الريبة . فعنى مريب : موقع فى الريبة أى : فى القلق
والاضطراب .

أى : قال المكذبون لرسلمهم إنا كفرنا بما جئتم به من المعجزات والبينات ،

(١) راجع تفسير الشوكاني > ٣ ص ٩٧ ففيه ما يقرب من عشرة أقوال فى

معنى الآية .

(٢) تفسير القرطبي ، > ٩ ص ٣٤٦ .

ولنا لني شك كبير موقع في الريبه مما تدعوننا إليه من الإيمان بوحدانية الله ، وبإخلاص العبادة له ..

قال الجمل ماملخصه : فإن قيل إنهم أكدوا كفرهم بما أرسل به الرسل ثم ذكروا بعد ذلك أنهم شاكون مرتابون في صحة قوولهم فكيف ذلك؟

فالجواب : كأنهم قالوا إنما كفرنا بما أرسلتم به أيها الرسل ، فإن لم نكن كذلك ، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم ..

أو يقال: المراد بقوولهم إنما كفرنا بما أرسلتم به، أي بالمعجزات والبيانات، وبقوولهم : « ولنا لني شك مما تدعوننا إليه مريب ، وهو الإيمان والتوحيد .

أو يقال : إنهم كانوا فرقتين إحداهما جازمت بالكفر ، والأخرى شككت ، .. ، (١)

ثم بين - سبحانه - ما رد به الرسل على المكذبين من أقوامهم فقال : « قالت رسالهم أفي الله شك ، فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .. »

والاستفهام في قوله « أفي الله شك ، للتوبيخ والإنكار ، وعمل الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله -- تعالى -- وفي وحدانيته .

وقوله « فاطر السموات والأرض ، من الفطر بمعنى الخلق والإبداع من غير سبق مثال وأصله : الشق وفصل شيء عن شيء ، ومنه فطر قاب البعير أي : طلع وظهر ، واستعمل في الإيجاد والإبداع والخلق لاقتضائه التركيب الذي سبيله الشق والتأليف ، أو لما فيه من الإخراج من العدم إلى الوجود .

والمعنى : قال الرسل لأقوامهم على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة : أفي وجود الله - تعالى - وفي وجوب إخلاص العبادة له شك ، مع أنه - سبحانه - هو د فاطر السموات والأرض ، أي : خالقهما ومبدعهما ومبدع ما فيهما على أحكم نظام ، وعلى غير مثال سابق ...

وهو - سبحانه - فضلا منه وكرما يدعوكم ، إلى الإيمان بما جئناكم به من لدنه ، ليغفر لكم ، بسبب هذا الإيمان ، من ذنوبكم ويؤخركم ، في هذه الدنيا ، إلى أجل مسمى ، أي : إلى وقت معلوم عنده تنتهي بإنتائه أعماركم ، دون أن يعاجلكم خلال حياتكم بهذاب الاستئصال ، رحمة بكم ، وأملا في هدايتكم .

فأنت ترى أن الرسل الكرام قد أنكروا على أقوامهم أن يصل بهم انطماس البصيرة إلى الدرجة التي تجعلهم ينكرون وجود الله مع أن الفطر شاهدة بوجوده ، وينكرون وحدانيته مع أنه وحده الخالق لكل شيء ، ويشركون معه في العبادة آلهة أخرى ، مع أن هذه الآلهة لا تضر ولا تنفع .

وجملة ، فاطر السموات والأرض ، جيء بها كدليل على نفي الشك في وجوده - سبحانه - وفي وجوب إخلاص العبادة له ، لأن وجودهما على هذا النسق البديع يدل دلالة قاطعة على أن لهما خالقا قادرا حكما ، لاستحالة صدور تلك المخلوقات من غير فاعل مختار .

وجملة ، يدعوكم ... ، حال من اسم الجلالة ، واللام في قوله ، ليغفر لكم من ذنوبكم ، متعلقة بالدعاء .

أي : يدعوكم إلى الإيمان بنا لسكى يغفر لكم .

قال الشوكاني ماملخصه : و « من » في قوله « من ذنوبكم » قال أبو عبيدة : لأنها زائدة ، ووجه ذلك قوله تعالى - في موضع آخر « إن الله يغفر

الذنوب جميعا ، وقال سيديويه : هي للتبويض ، ويجوز أن يذ كر البعض ويراد منه الجميع . وقيل التبويض على حقيقته ولا يلزم من غفران الذنوب لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - غفران جميعها لغيرهم

وقيل هي للبدل أي لتسكون المغفرة بدلا من الذنوب . . . ، (١) .

وقال الجمل : ويجتمل أن يضمن « يغفر » معنى يخلص ، أي : يخلص ، أي : يخلصكم من ذنوبكم ويكون في مقتضاه غفران جميع الذنوب ، وهو أولى من دعوى زيادتها ، (٢) .

وقوله - سبحانه - « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » ، حكاية لرد آخر من الردود السيئة التي قابل بها المكذبون رسولهم .

أي : قال الظالمون لرسولهم الذين جاءوا لهدايتهم ، ما أنتم إلا بشر مثلنا في الهيئة والصورة والمأكل والمشرب ، تريدون بما جئتمونا به أن تصرفونا وتمنعونا عن عبادة الآلهة التي ورثنا عبادتها عن آباؤنا

فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه « فأتونا بسلطان مبين » أي بحجة ظاهرة تدل على صدقكم ، وتسلط هذه الحجة بقوتها على نفوسنا وتجذبنا إلى اليقين ، من السلاطة وهي التمكين من القمر .

وكان هؤلاء الظالمين بقولهم هذا ، يرون أن الرسل لا يصح أن يكونوا من البشر ، وإنما يكونون من الملائكة .

وكان ما أتاهم به الرسل من حجج باهرة تدل على صدقهم ، ليس كافيا في زعم هؤلاء المكذبين للإيمان بهم ، بل عليهم أن يأتوهم بحجج محسوسة

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني > ٣ ص ٩٨

(٢) حاشية الجمل على الحلالين > ٢ ص ٥١٧

أخرى وهكذا الجحود العقلي ، والانطماس النفسى يحمل أصحابه على قلب الحقائق ، ولا يشار طريق الضلالة على طريق الهداية .

وهنا يحكى القرآن أن الرسل - عليهم السلام - قد قابلوا هذا السفه من أقوالهم المنطق الحكيم ، وبالأسلوب المهذب فيقول : « قالت لهم رسلكم إن نجن إلا بشر مثلكم وليكن الله بمن علي من يشاء من عباده ... »

أى : قال الرسل لم يكن فيهم على سبيل الإرشاد والتنبيه : نحن نوافقكم كل الموافقة على أننا بشر مثلكم كما قلتم ، وليكن هذه المماثلة بيننا وبينكم فى البشرية ، لا تمنع من أن يتفضل الله على من يشاء التفضل عليه من عباده ، بأن يمنحه النبوة أو غيرها من نعمه التى لا تحصى .

فأنت ترى أن الرسل - عليهم السلام - قد سلوا للكذابين دعواهم المماثلة فى البشرية ، فى أول الأمر ، ثم بعد ذلك بينوا لهم جهلهم وسوء تفكيرهم ، بأن أفهموهم بطريق الاستدراك ، أن المشاركة فى الجنس لا تمنع التفاضل ، فالبشر كلهم عباد الله ، وليكنه - سبحانه - بمن على بعضهم بنعم لم يعطها لسواهم .

فالمقصود بالاستدراك دفع ما توهمه المكذبون ، من كون المماثلة فى البشرية تمنع اختصاص بعض البشر بالنبوة .

قال الألوسى : قوله - تعالى - : « قالت لهم رسلكم ، مجازاة لأول مقاتلتهم وإن نحن إلا بشر مثلكم ، كما تقولون ، وهذا كالقول بالموجب ، لأن فيه إطماعا فى الموافقة ، ثم كروا على قوالم بالإبطال فقالوا : « وليكن الله بمن على من يشاء من عباده ، . »

أى : إنما اختصنا الله - تعالى - بالرسالة بفضل منه وامتنان ، والبشرية غير مانعة لمشيئته - جل وعلا - . وفيه دليل على أن الرسالة عطائيه ، وأن ترجيح بعض الجائز على بعض بمشيئته - تعالى - ولا يخفى ما فى العدول

عن ولكن الله من علينا ، إلى ما في النظم الجليل منهم - عليه السلام - ، (١) .
وقوله - سبحانه - : وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، حكاية
لرد الرسل على قول المكذبين لهم : فأتونا بسلطان مبين .

أى : وقال الرسل المكذبين من أقوامهم - أيضا - وما صح وما استقام
لنا نحن الرسل أن نأتيكم - أي الضالون - بحجة من الحجج ، أو بخارق من
الخوارق التي تقترحونها علينا ، إلا بإذن الله وإرادته وأمره لنا بالإتيان بما
اقترحتم ، فبجن عباده ولا نتصرف إلا بإذنه .

ثم أكد الرسل تمسكهم بالمضى في دعوتهم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم -
« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والتوكل على الله معناه : الاعتماد عليه ، وتفويض الأمور إليه ، مع
مباشرة الأسباب التي أمر - سبحانه - بمباشرتها .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليتوكل المؤمنون ، الصادقون ،
دون أن يعبأوا بعنادكم ولجاجكم ، ونحن الرسل على رأس هؤلاء المؤمنين
الصادقين .

فالجلة الكريمة أمر من الرسل لمن آمن من قومهم بالتوكل على الله وحده ،
وقد قصدوا بهذا الأمر أنفسهم قصدا أواميا ، بدليل قولهم بعد ذلك - كما حكى
القرآن عنهم - : « وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا » .

أى : وما عذرنا إن تركنا التوكل على الله - تعالى - ، والحال أنه - عز
وجل - قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ، فقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها
وأبينها ، وهي طريق إخلاص العبادة له ، والاعتماد عليه وحده في كل شئوننا .

فالجملة الكريمة تدل على اطمئنانهم إلى سلامة مواقفهم في تفويض أمورهم إلى الله ، وإلى رعاية الله - تعالى - حيث هداهم إلى طريق النجاة والسعادة .

ثم أضافوا إلى ذلك تيسير أعدائهم من التأثير بأذاهم ، فقالوا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، .

أى : ووالله لنصبرن صـبراً جميلاً في حاضرنا ومستقبلنا - كما صبرنا في ماضينا - على إبدائكم لنا . والذي من مظاهره : عصيانكم لأقوالنا ، ونفوركم من نصحتنا ، واستمزازكم بنا ، ومحاربتكم لنا ...

ثم ختموا أقرالهم بتأكيد تصميمهم على الثبات في وجه الباطل فقالوا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ، .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليثبت المتوكلون على توكلهم . وليفوضوا أمورهم إلى خالقهم ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو الذى لا يعجزه شيء .

وتقديم الجار والمجرور في الجملة الكريمة وفيما يشبهها ، مؤذن بالحصر ، وبأن هؤلاء الرسل الكرام لا يرجون نصراً من غير الله - تعالى - .

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة ، قد حكمت لنا بأسلوب مؤثر حكيم ، جانباً من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين مكذبيهم ، وبينت لنا كيف دافع الرسل عن عقيدتهم ، وكيف ردوا على الأقوال السيئة ، والأفعال القبيحة ، التى واجههم بها المكذبون ، وكيف أعلنوا فى قوة وعزم وإصرار ثباتهم فى وجوه أعدائهم ، ومقابلتهم الأذى بالصبر الذى لا جزع معه ، مهما صنع الأعداء فى طريقهم من عقبات ، ومهما أثاروا من أباطيل وشبهات ...

ثم حكمت السورة بعد ذلك جانباً آخر من تلك المحاورات التى دارت بين الرسل وبين أعدائهم

من العذاب الذي أعده للظالمين فقال - تعالى - :

« وقال الذين كفروا لرسولهم لننخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهليكن الظالمين (١٣) ولننسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (١٤) واستفتحوها وخاب كل جبار عنيد (١٥) من ورائه جحيم ويُسقى من ماء صديد (١٦) يتحرَّعه ولا يكاد يُسيفه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذابٌ غليظٌ (١٧) » .

فقوله - سبحانه - : « وقال الذين كفروا لرسولهم لننخرجنكم من أرضنا ، أو لتعودن في ملتنا ... » حكاية لما هدد به رؤوس الكفار رسوله ، بعد أن أخمهم الرسل بالحجة البالغة ، وبالمنطق الحكيم .

واللام في « لننخرجنكم » هي الموطئة للقسم . و « أو » للتخيير بين الأمرين .

أى : وقال الذين عتوا في الكفر - على سبيل التهديد - لرسولهم ، الذين جاءوا لهدايتهم ، والله لننخرجنكم - أيها الرسل - من أرضنا ، أو لتعودن في ديننا وملتنا .

قال الإمام الرازي : « أعلم أنه - تعالى - لما حكي عن الأنبياء - عليهم السلام - ، أنهم قد اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه ، والاعتماد على حفظه وحياطته ، حكي عن الكفرة أنهم بالغوا في السفاهة وقالوا للأنبياء - لننخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ، » .

والمعنى : ليكون أحد الأمرين لا محالة ، إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا .

والسبب فيه أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين . وأهل الباطل
يكونون كثيرين .

والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين ، فلهذه الأسباب قدروا
على هذه السفاهة ، (١) :

والتعبير بقوله - سبحانه - « أو لتعودن في ملتنا » يفيد بظاهرة أن
الرسول كانوا على ملة الكافرين ثم تركوها ، فإن العود معناه : الرجوع إلى
الشيء بعد مفارقتها . وهذا محال ، فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة -
عن ارتكاب الكبائر ، فضلا عن الشرك .

وقد أجيب عن ذلك بإجابات منها :

أن الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل ، إلا أن المقصود به أتباعهم
المؤمنون ، الذين كانوا قبل الإيمان بالرسول على دين أقوامهم ، فكانهم
يقولون لهؤلاء الاتباع : لقد كنتم على ملتنا ثم تركتموها ، فإما أن تعودوا
إليها وإما أن تخرجوا من ديارنا ، إلا أن رموس الكفر وجهوا الخطاب إلى
الرسول من باب التغليب .

ومنها : أن العود هنا بمعنى الصيرورة ، إذ كثيرا ما يرد « عاد » بمعنى صار ،
فيعمل عمل كان ، ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة ، بل يستدعي الانتقال
من حال سابقة إلى حال جديدة مستأنفة ، فيكون المعنى : لنخرجنكم من
أرضنا أو لتصيرن كفارا مثلنا .

ومنها : أن هذا القول من المكفار جار على توهمهم وظنهم ، أن الرسل
كانوا قبل دعوى النبوة على ملتهم ، لشكوتهم قبل البعثة عن الإنكار عليهم ،
فلهذا التوهم قالوا ما قالوا ، وهم كاذبون فيما قالوه .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٩ ص ٩٩

وشبيهه بهذة الآية قول قوم شعيب - عليه السلام - له «لنخرجنك يا شعيب
والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ..» (١)
وقول قوم لوط له «أخرجوا آل لوط من تريتكم أنهم أناس
يتطهرون» (٢) .

وقوله - سبحانه - : فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم
الأرض من بعدهم .. ، بشارة عظيمة من الله - تعالى - لرسله ، ووعد لهم
بالنصر على أعدائهم ..

أى : فأوحى الله - تعالى - إلى الرسل - بعد أن قال لهم الكافرون
ما قالوا - : أبشروا أيها الرسل لنهلكن الظالمين ، الذين هددوكم بالإخراج
من الديار ، أو بالعودة إلى ملتهم ، « ولنسكننكم » - أيها الرسل - « الأرض »
أى أرضهم « من بعدهم » أى : من بعد إهلاكهم واستئصال شأقتهم .

قال الألوسى ماملاخصه : « وأوحى هنا يحتمل أن يكون بمعنى فعل الإيحاء
فلا وفعل له .. »

وقوله « لنهلكن » ، على إضمار القول ، أى : قائلنا لنهلكن . ويحتمل أن
يكون جاريا مجرى القول لكونه ضربا منه ، وقوله « لنهلكن » مفعوله ..
وخص - سبحانه - الظالمين من الذين كفروا ، لأنه من الجائز أن يؤمن
من الكفرة الذين قالوا تلك المقالة أناس معينون ، فالتوعد لإهلاك من
خاص للظلم ، (٣) .

وأكد - سبحانه - إهلاك الظالمين وإسكان الرسل أرضهم ، بلام القسم
وفون التوكيد .. زيادة فى إدخال السرور على نفوس الرسل ، وفى تثبيت

(١) سورة الأعراف . الآية ٨٨

(٢) سورة النمل . الآية ٨٦

(٣) تفسير الألوسى ج ١٢ ص ١٧٩

قلوبهم على الجح ، وردا على أولئك الظالمين الذين أفسموا بأن يخرجوا
لرسل من ديارهم ، أو يعودوا إلى ملتهم .

قال صاحب الكشاف والمراد بالأرض في قوله « ولنسكنكم الأرض
من بعدهم ، أرض الظالمين وديارهم : ونحوه : « وأورثنا القوم الذين يستضعفون
مشارك الأرض ومغاربها ، « وأورثكم أرضهم وديارهم ، . . .

وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « من آذى جاره ورثه الله داره ، .

ثم قال : ولقد عاينت هذا في مدة قريبة ، كان لي خال يظلمه عظيم القرية
التي أنا منها ويؤذيني فيه ، فمات ذلك العظيم وملكتني الله ضيعته ، فنظرت يوما
إلى أبناء خالي يترددون فيها ، ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون
وينهون ، فذكرت قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدثهم به ،
وسجدنا شكريا لله (١) .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - « ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ،
يعود إلى ما قضى الله به من إهلاك الظالمين ، وتمكين الرسل وأتباعهم
من أرضهم .

أي : ذلك الذي قضيت به كائن لمن خاف قيامي عليه ، ومراقبتي له ،
ومكان وقوفه بين يدي للحساب ، وخاف وعيدي بالعذاب لمن عصاني .

قال الجبل : وفي السمين : ومقامي فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مقحم
وهو بعيد إذ الأسماء لا تقحم - أي ذلك لمن خافني - الثاني : أنه مصدر
مضاف للفاعل .

قال الفراء : مقامي مصدر مضاف لفاعله : أي قيامي عليه بالحفظ .
الثالث . أنه اسم مكان . قال الزجاج : مكان وقوفه بين يدي للحساب .. (٢)

(١) تفسير الكشاف > ٢ ص ٣٧١

(٢) حاشية الجبل على الجلالين > ٢ ص ٥١٨

وقوله - سبحانه . « واستفتحوا » من الاستفتاح بمعنى الاستنصار ، أى :
طلب النصر من الله - تعالى - على الأعداء . والسين والتاء للطلب .

ومنه قوله - تعالى - « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . . . » وقوله - تعالى - :
« وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . . . »

أو يسكون « واستفتحوا » من الفتاحة بمعنى الحكم والقضاء ، أى :
واستحكموا الله - تعالى - وظلموا منه القضاء والحكم ، ومنه قوله - تعالى -
« ربنا أفتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

والجلمة الكريمة معطوفة على « فأوحى إليهم ربهم » ، والضمير يعود
إلى الرسل .

والمعنى : والتمس الرسل من خالقهم - عز وجل - أن ينصرهم على أعدائهم
وأعدائهم ، وأن يحكم بحكمه العادل بينهم وبين هؤلاء المكذبين .

قالوا : وما يؤيد ذلك قراءة ابن عباس ومجاهد وابن مجيßen « واستفتحوا »
بكسر التاء - أمرا للرسل .

ومنهم من يرى أن الضمير يعود للفرقيين : الرسل ومكذبيهم . أى : أن
كل فريق دعا الله أن ينصره على الفريق الآخر .

وقوله « وخاب كل جبار عنيد » بيان لنتيجة الاستفتاح .

والجبار : الإنسان المتكبر المغرور المتعالى على غيره ، المدعى لمنزلة أو
لشئ ليس من حقه .

والعنيد : مأخوذ من العند - بفتح النون - بمعنى الميل . يقال : عند فلان
عن الطريق - كنصر وضرب وكرم - عنودا ، إذا مال عنها . وعند فلان
عن الحق ، إذا خالفه .

والجلمة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير . واستفتحوا فنصر الله
- تعالى - رسله على أعدائهم ، وخاب وخسر ، كل متكبر متجبر معاند للحق .

قال ابن كثير : قوله « وخاب كل جبار عنيد ، أى : متجبر فى نفسه معاند للحق ، كما قال - تعالى - ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مرىب . الذى جعل مع الله لها آخر فألقيا فى العذاب الشديد ، (١) .
وفى الحديث : يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادى الخلائق فتقول . لى وكلت بكل جبار عنيد . . ، (٢)

ر قال - سبحانه - « وخاب كل جبار عنيد ، ولم يقل وخاب الذين كفروا كما هو مقتضى الظاهر من السياق ، للتنبية على أن الذين كفروا كانوا جبابرة معاندين للحق ، وأن كل من كان كذلك فلا بد من أن تكون عاقبته الخيبة والخسران .

وقوله « من ورائه جهنم ، صفة لجبار عنيد .

والمراد بقوله « من ورائه ، أى : من امامه ، أو من بعد هلاكه :

أى : من أمام خيبة هذا الجبار العنيد جهنم ، تنتظر ليحل بها ، بسبب كفره وظلمه .

قال صاحب أضواء البيان : قوله « من ورائه جهنم . . ، الورا هنا بمعنى الامام كما هو ظاهر ، ومنه قوله - تعالى - « و كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، أى : و كان أمامهم ملك . . .

ومنه قول الشاعر :

أترجو بنو مروان سمى وطاعى وقومى تميم والفلاة وراثيا

أى والفلاة أماميا .

وقال بعضهم : قوله « من ورائه » أى من بعد هلاكه ، ومنه قول النابغة :

(١) سورة ق الآيات من ٢٤ - ٢٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٣

حلفت فلم أنرك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

أى : وليس بعد الله للمرء مذهب ، والأول هو الظاهر وهو الحق ، (١) .
وعلى أية حال فإن الجملة السكريمة تدل على أن جهنم تنتظر هذا الجبار
العنيد ، وترصد له ، وتتبعه حيث كان ، بحيث لا يستطيع الفرار منها ، أو
الهرب عنها .

وجملة « ويسقى من ماء صديد ، معطوفة على مقدر ، أى : من ورائه جهنم
يلقى فيها مذموما مدحورا ، ويسقى من ماء مخصوص ليس كالمياه المعهودة ،
هو الصديد ، أى ما يسيل من أجساد أهل النار من دم مختلط بقيح ، واشتقاقه
من الصد ، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته .

وهو بدل أو عطف ببيان من ماء .

وقوله « يتجرعه ولا يكاد يسيغه .. » بيان لحالة هذا الجبار العنيد عند
تعاطيه للصديد .

والتجرع : تكلف الجرع وهو بلع الماء ، وفعله - كسمع ومنع -

ويسيقه : من السوغ وهو انحدار الشراب في الخلق بسهولة وقبول
يقال ساغ الشراب سوغا وسواغا إذا كان سهل المدخل .

أى : يتكلف بلع هذا الصديد مرة بعد أخرى لمراراته وقبحه ، ولا يقارب
أن يسيغه فضلا عن الإساغة . بل يحرص به فيشر به بعد عناء ومشقة جرعة
غيب جرعة ،

وقوله « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ،
معطوف على قوله « يتجرعه » لبيان حالة أخرى من أحوال شقائه وعذابه .

(١) تفسير أضواء البيان - ٣ ص ١٠٦ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى

أى : وتأثيره الأسباب المؤدية للموت والهلاك من كل جهة من الجهات ،
ومن كل موضع من مواضع بدنه ، وما هو يميت فيستريح من هذا الشقاء
والعذاب ، ومن وراء كل ذلك عذاب غليظ أى : شاق شديد لا يقل فى ألمه عما
هو فيه من نكال .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى
عليهم فيها موت ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور ، (١) .

وقوله - تعالى - « ويمنعونها الأشتى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت
فيها ولا يحيى ، (٢) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد صورت لنا سوء عاقبة المكذبين للحق .
تصويراً مؤثراً ، تهتز له النفس ، وتوجل منه القلوب .

ثم ضرب - سبحانه - مثلاً لأعمال الكافرين فى حيويتها وذمها يوم
القيامة ، وساق الأدلة الدالة على قدرته القاهرة ، وصور أحوال الكافرين
يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وحكى ما يقوله الضعفاء للمستكبرين وما يقوله
الشیطان لأتباعه فى هذا اليوم العصيب ، وما أعدّه للمؤمنين الصادقين فى هذا
اليوم فقال - تعالى - :

« مثلُ الذين كفروا برّبهم أعمالهم كرمادٍ اشتدّت به الريحُ فى
يومٍ عاصفٍ لا يقدرونَ مما كسبوا على شيءٍ ، ذلكَ هوَ الضلالُ
البعيدُ (١٨) ألم تر أن اللهَ خلقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ ، إن يشأْ
يذهبكم ويأتِ بخلقٍ جديدٍ (١٩) وما ذلكَ على اللهِ بعزيرٍ (٢٠)

(١) سورة فاطر الآية ٣٦

(٢) سورة الأعراف الآيات من ١ - ١٣

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّفَاءُ لِلَّذِينَ اسْكَبُوا ، إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ،
 فَبَلَّ أَنْتُمْ مُمْغُونَ مِنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ
 سِوَاهُ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا
 قُضِيَ الْأَمْرُ ، إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ،
 وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا
 تُلُومُونِي وَلَوْ مَوَّأْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنْتُمْ بِمُضِرِّ خُكُمِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضِرِّ خِيٍّ ، إِنِّي
 كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)
 وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) .

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر أنواع عذابهم في الآية
 المتقدمة ، بين في هذه الآية وهي قوله - تعالى - مثل الذين كفروا ببرهم ... ،
 أن أعمالهم بأسرها ضائعة باطلة ، لا ينتفعون بشيء منها . وعند هذا
 يظهر كمال خسرانهم ، لأنهم لا يجدون في القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه
 في الدنيا وجدوه ضائعا باطلا ، (٣) .

والمثل : النظير والشبيه . ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمخالفة
 مضربه بمورده . ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة ، أو الحال ،
 أو القصة إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة .

والمراد بأعمال الذين كفروا في الآية الكريمة : ما كانوا يقومون به في الدنيا من أعمال حسنة كإطعام الطعام ، ومساعدة المحتاجين ، وإكرام الضيف ، إلى غير ذلك من الأعمال الطيبة .

والرماد : ما يبقى من الشيء بعد احتراق أصله ، كالمتبقي من الخشب أو الحطب بعد إحتراقهما .

والعاصف : من العصف وهو اشتداد الريح ، وقوة هبوبها .

قال الجمل : وقوله : « مثل الذين كفروا . . . » فيه أوجه من الإعراب : أحدها وهو مذهب سيديويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا ، وتكون الجملة من قوله « أعمالهم كرماد . . . » مستأنفة جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف مثلهم .. ؟ فقيل : كيت وكيت .

والثاني : أن يكون « مثل » مبتدأ ، و « أعمالهم » مبتدأ ثان ، و « كرماء » خبر المبتدأ الثاني ، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول . . . (١)

والمعنى : حال أعمال الذين كفروا في حبوطها وذهابها وعدم انتفاعهم بشيء منها في الآخرة ، كحال الرماد المكس الذي أتت عليه الرياح العاصفة ، فحقيقته وبددته ، ومزقته نزيقا لا يرجى معه لإجتماع .

فالآية الكريمة تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال البر والخير .

ووجه الشبه : الضياع والتفرق وعدم الانتفاع في كل ، فبما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثورا ، فكذلك أعمال الكافرين في الآخرة تصير هباء منثورا . لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان وإخلاص !! بمبادءة الله - تعالى - .

ووصف - سبحانه - اليوم بأنه عاصف ، مع أن العصف وشدة الريح ،

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٢٠

للبالغة في وصف زمانها - وهو اليوم - بذلك، كما يقال : يوم حار ويوم بارد، مع أن الحر والبرد فيهما وليس منهما .

وقوله - سبحانه - « لا يقدرُونَ بما كسبوا على شيء »، بيان المقصود من التشبيه ، وهو أن هؤلاء الكافرين ، لا يقدرُونَ يوم القيامة ، على الانتفاع بشيء مما فعلوه في الدنيا من أفعال البر والخير ، لأن كفرهم أحبطها فذهبت سدى . دون أن يستفيدوا منها ثواباً ، أو تخفف عنهم عذاباً .

قال الآلوسى : وفي الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : يارسول الله ، إن ابن جعان في الجاهلية كان يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال : لا ينفعه ؛ لأنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتي يوم الدين ،^(١) وقال الإمام ابن كثير - ماملخصه - : هذا مثل ضربه الله - تعالى - لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وهدموا وهم أحوج ما كانوا إليها . . .

كما قال - تعالى - : وقد مننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ،^(٢) .
وكما قال - تعالى - « مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ، كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلّموا أنفسهم فأهلكته »^(٣) . . .^(٤)

واسم الإشارة في قوله « ذلك هو الضلال البعيد »، يعود إلى ما دل عليه التمثيل من بطلان أعمالهم ، وذهاب أثرها .

أى : ذلك الحبوط لأعمالهم ، وعدم انتفاعهم بشيء منها ، هو الضلال البعيد .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٨٣

(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٨٣ .

أى : البالغ أقصى نهايته ، والذي ينتهى بصاحبه إلى الملاك والمذاب
المهين .

ووصف - سبحانه - الضلال بالبعد ، لأنه يؤدي إلى خسران لا يمكن
تداركه ، ولا يرجى الخلاص منه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك . بعض مظاهر قدرته التي لا يعجزها شيء فقال
- تعالى - : ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ، إن يشأ يذهبكم
ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز . . .

والخطاب في قوله د ألم تر . . . لسلك من يصلح له بدون تعيين .
والاستفهام للتقريب .

والرؤية مستعملة في العلم الناشئ عن النظر والتفكير والتأمل في ملكوت
السموات والأرض .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله - تعالى - د ألم تر . . . هذا التعبير قد
ينكر لمن تقدم عليه فيكون للتعجب ، وقد وينكر لمن لا يكون كذلك ،
فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر في ذلك حتى أجرى مجرى المثل في هذا
الباب ، بأن شبه من لم ير الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه ،
وأنه ينبغي أن يتعجب منه ، ثم أجرى الكلام معه ، كما يجري مع من رأى ،
قصدا إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب . . . (١)

والمعنى : ألم تعلم - أيها العاقل - أن الله - تعالى - خلق السموات والأرض
بالحق ، .

أى : خلقهما بالحكمة البالغة المنزهة عن البعث ، وبالوجه الصحيح الذي
تقتضيه إرادته ، وهو - سبحانه - إن يشأ يذهبكم ، أى - يهلككم أيها الناس

« ويأت بخلق جديد ، سواكم ، لأن القادر على خلق السموات والأرض وما فيهما من أجرام عظيمة ، يكون على خلق غيرهما أقدر ، كما قال - تعالى - «خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس . . .» (١) .

وقوله - سبحانه - « وما ذلك على الله بعزيز ، معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أى : إن يشأ - سبحانه - يهلككم - أيها الناس - ويأت بمخلوقين آخرين غيركم ، وما ذلك الإذهاب بكم ، والإتيان بغيركم بمتعذر على الله ، أو بمتعاص عليه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء ، ولا يحول دون نفاذ قدرته حائل .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ،» (٢) .

وقوله - تعالى - : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكفروا أمثالكم» (٣) .

وقوله - تعالى - : « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ،» (٤) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من الحوار الذي يدور يوم القيامة بين الضعفاء والمستكبرين ، بين الاتباع والمتبوعين ... فقال - تعالى - : « وبرزوا

(١) سورة غافر الآية ٥٧ .

(٢) سورة فاطر الآيات من ١٥ - ١٧ .

(٣) سورة محمد الآية ٢٨ .

(٤) سورة النساء الآية ١٣٣ .

لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون
عنا من عذاب الله من شيء ... ،

وقوله « وبرزوا » من البروز بمعنى الظهور ، مأخوذ من البراز وهو الفضاء
الواسع ، الذي يظهر فيه الناس بدون استتار .
أى : وخرج الكافرون جميعا من قبورهم يوم القيامة ، وظهروا ظهوراً
لا خفاء له ، لكي يحاسبهم - سبحانه - على أعمالهم في الدنيا .

وقال - سبحانه - « وبرزوا » بلفظ الفعل الماضي مع أن الحديث عن يوم
القيامة ، للتنبية على تحقق وقوع هذا الخروج ، وأنه كائن لا محالة .
وعبر - سبحانه - بهذا التعبير ، مع أنهم لا يخفون عليه سواء أبرزوا أم لم
يبرزوا ، لأنهم كانوا في الدنيا يستترون عن العيون عن اجتراحهم للسيئات
ويظنون أن ذلك يخفى على الله - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - ما سيقوله الضعفاء للمستكبرين في هذا الموقف
العصيب فقال :

« فقال الضعفاء ، وهم العوام والأتباع الذين فقدوا نعمة التفكير ، ونعمه -
حرية الإرادة ، فهانوا وذلوا .. »

قال هؤلاء الضعفاء « للذين استكبروا ، وهم السادة المتبوعون الذين
كانوا يقودون أتباعهم إلى طريق العمى والضلال .

« إنا كنا لكم ، - أيها السادة - « تبعاً » جمع تابع كخادم وخدم .

أى : إنا كنا في الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لأمركم ، في تكذيب الرسل ،
وفي كل ما تريدونه منا .

والاستفهام في قوله - سبحانه - « فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من
شيء » ، للتقريع والتفجع .

ومغنون من الإغناء بمعنى الدفاع والنصرة .

قال الشوكاني : يقال أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أودعه إليه النفع ، (١) .

أى : فهل أنتم — أبها المستكبرون — دافعون عنا شيئاً من عذاب الله العازل بنا ، حتى ولو كان هذا الشيء المدفوع قليلاً ؟ إن كان في إمكانكم ذلك فاعظروه لنا ، فقد كنتم في الدنيا سادتنا وكبرامنا ، وكنتم تزعمون أنكم أصحاب اللحظة يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين « من » فى « من عذاب الله » وبينه فى « من شيء » ؟

قلت : الأولى للتبيين ، والثانية للتبويض ، كأنه قيل : هل أنتم مفسرون عنا بعض الشيء الذى هو عذاب الله ؟ ويجوز أن يكون للتبويض معاً بمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شيء ، هو بعض عذاب الله ؟ أى : بعض بعض عذاب الله ، (٢) .

ثم حكى — سبحانه — رد المستكبرين على المستضعفين فقال : « قالوا لو هدانا الله لهديناكم .. »

أى : قال المستكبرون — بضيق وتحسر — فى ردهم على المستضعفين : لو هدانا الله — تعالى — إلى الإيمان الموصل إلى النجاة من هذا العذاب الأليم « لهديناكم ، إليه ، ولسكن ضللنا عنه وأضللناكم معنا ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، ولو كنا نستطيع النفع لنفعا أنفسنا ... »

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ، ، »

(١) تفسير الشوكاني ج ٣ ص ٣٠٣ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧٣ .

والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه وذووله
يقال : جزع فلان يجزع جزعا وجزوعاً ، إذا ضعف عن حمل ما نزل به
و لم يجد صبراً .

والمحيص : المهرب والمنجى من العذاب . يقال : حاص فلان عن الشيء
يحيص حيصاً وحيصاً ، إذا عدل عنه على جهة الهرب والفرار .

أى : مستو عندنا الجزع بما نحن فيه من عذاب ، أو الصبر على ذلك ،
وليس لنا من مهرب أو منجى من هذا المصير الأليم .

فآية الكريمة تحكى أقوال الضعفاء يوم القيامة ، وهى أقوال يبدو فيها
طابع الذلة والمهانة كما هو شأنهم فى الدنيا ، كما تحكى رد المستكبرين عليهم ،
وهو رد يبدو فيه التبرم والتفجع والتأنيب من طرف خفى لهؤلاء الضعفاء ،
والتسليم بالواقع الأليم الذى لا يحيص لهم عنه .

قال الإمام ابن كثير : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار
قال بعضهم لبعض : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكاثم وتضرعهم
إلى الله - تعالى - ، تعالوا نبك وتضرع إلى الله ، قبكوا وتضرعوا ، فلما
رأوا ذلك لا يفهمهم قالوا : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ،
نعنوا حتى نصبر ، فصبروا صبراً لم ير مثله ، فلم يفهمهم ذلك ، فعند ذلك
قالوا : دسواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ،
فقال ... تعالى - : ، وقال الشيطان لما قضى الأمر ، إن الله وعدكم وعد الحق
ووعدتكم فأخلفتكم . . . والمراد بالشيطان هنا : إبليس - لعنه الله - .

قال الفخر الرازى : وأما الشيطان فالمراد به إبليس ، لأن لفظ الشيطان
مفرد فيتناول الواحد ، وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم ، فحمل اللفظ عليه

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٨ .

أولى . لا سيما وقد قال - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم ، يقول الكافر ، قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ، ما هو إلا إبليس ، فهو الذى أضلنا ، فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول .. ،^(١).

والمراد بقوله - سبحانه - ولما قضى الأمر ، أى : حين تم الحساب ، وعرف أهل الجنة ثوابهم ، وعرف أهل النار مصيرهم ، واستقر كل فريق فى المكان الذى أعده الله - تعالى - له .

والمقصود من حكاية ما يقوله الشيطان للكافرين فى هذا اليوم : تحذير المؤمنين من وسوسته وإغوائه ، حتى ينجو من العذاب الذى سيحل إبتاعه يوم القيامة .

والمراد بالحق فى قوله : إن الله وعدهم وعد الحق ، : الصدق والوفاء بما وعدهم به .

والمراد بالإخلاف فى قوله : ووعدتكم فأخلفتكم ، : الكذب والغدر وعدم الوفاء بما مناهم به ، من أمانى باطلة .

قال - تعالى - : و يعدهم ويعنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ،^(٢) على ألسنة رسله وإضافة الوعد إلى الحق من إضافة الموصوف إلى الصفة أى : إن الله - تعالى - وعدهم الوعد الحق الذى لا نقض له ، وهو أن الجزاء حق ، والبعث حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ووعدتكم وعداً باطلاً بأنه لا بعث ولا حساب ... فأخلفتكم ما وعدتكم به ، وظهر كذبه فيما قلته لكم . ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١١٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٠ .

والسلطان : اسم مصدر بمعنى التسلط والقهر والغلبة .

أى : وما كان لى فيما وعدتكم به من تسلط عليكم ، أو إجبار لكم ، لكنى
دعوتكم إلى مادعوتكم إليه من باطل وغواية ، فانقدتم لدعوتى ، واستجبتم
لوموسى عن طواعية واختيار .

فلاستثناء فى قوله وإلا أن دعوتكم ، استثناء منقطع ، لأن ما بعد حرف
الاستثناء ليس من جنس ما قبله ، وبعضهم يرى أن الاستثناء متصل .
قال الجمل : وفى هذا الاستثناء وجهان : أظهرهما : أنه استثناء منقطع ،
لأن دعاه ليس من جنس السلطان وهو الحجّة البينة . والثانى : أنه متصل لأن
القدرة على حل الإنسان على الشىء تارة تكون بالقهر ، وتارة تكون بتقوية
الداعية فى قلبه بإلقاء الوسوس إليه . فهو نوع من التسلط ، (١) .

وقوته ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، زيادة فى تأنيبهم وفى حسراتهم على
انقيادهم له .

أى : فلا تلومونى بسبب وعودى إياكم . ولوموا أنفسكم ، لأنكم تقبلتم
هذه الوعود الكاذبة بدون تفكير أو تأمل ، وأعرضتم عن الحق الواضح الذى
جاءكم من عند ربكم ، ومالك أمركم .

ثم يتفرض يده منهم ، ويخلى بينهم وبين مصيرهم السىء فيقول : ما أنا
بمصرخكم وما أتم بمصرخى . .

أى : ما أنا بمفخشكم ومنقذكم مما أتم فيه من عذاب ، وما أتم بمفخى ما أنا
فيه من عذاب . أيضا . ، فقد انقطعت بيننا الأواصر وانصلت . . .

قال القرطبي ما ملخصه : والصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة
والمعاونة ، والمصرخ هو المغيث لغيره . . . قال أمية بن أبى الصلت :
ولا تجزعوا إناى لكم غير مُصرخ ولبس لكم عندى غناء ولا نصر

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٢ .

ويقال : صرّخ فلان أى : استغاث يصرخ صرخا وصرخا وصرخا وصرخة ..
ومنه : استصرخنى فلان فأصرخته ، أى : استغاث بى فأغثته ... (١)
وجملة « إني كفرت بما أشر كتمون من قبل .. » مستأنفة ، لإظهار المزيد
من التنصل والتبرى من كل علاقة بينه وبينهم .

و « ما » فى قوله « بما أشر كتمون » الظاهر أنها مصدرية .
قال الآلوسى ماملاخصه : وأراد بقوله « إني كفرت » أى : إني كفرت
اليوم « بما أشر كتمون من قبل » .
أى : من قبل هذا اليوم ، يعنى فى الدنيا ، و « ما » مصدرية ، و « من قبل »
متعلق بأشر كتمون .

والمعنى : إني كفرت بإشرا كلكم لإيائى الله - تعالى - فى الطاعة ، لأنهم
كانوا يطيعون الشيطان فيما يزينه لهم من عبادة غير الله - تعالى - ، ومن أفعال
الشر ...

ومراد اللعين : أنه إن كان إشرا كلكم لى مع الله - تعالى - ، هو الذى
أطمعكم فى نصرتى لكم ... فإني متبرأ من هذا الشرك ، فلم يبق بينى وبينكم
علاقة ... فالكلام محمول على إنشاء التبرى منهم يوم القيامة ...

ثم قال : وجوز غير واحد أن تكون « ما » موصولة بمعنى من ، والعائد
مخذوف ، و « من قبل » متعلق بكفرت . أى : إني كفرت من قبل حين أبيت
السجود لآدم بالذى أشر كتمونيه . أى : جعلتمونى شريكا له فى الطاعة وهو
الله - عز وجل - ...

والكلام على هذا إقرار من اللعين بقدم كفره ، وبسبق خطيئته . فلا يمكنه
أن يقدم لهم عونا أو نصرا ... (٢)

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣٥٧ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٨٩ .

وجمله ، إن الظالمين لهم عذاب أليم ، في موقع التعليل لما تقدم ، والظاهر أنها ابتداء كلام من جهته - تعالى - ، لبيان سوء عاقبة الظالمين .

ويجوز أن تكون من تنمة كلام إبليس - الذي حكاه القرآن عنه - ، ويكون الغرض منها قطع أطماعهم في الإغاثة أو النصر ، وتنبية المؤمنين في كل زمان ومكان إلى عداوة الشيطان لهم . وتحذيرهم من اتباع خطوته .

قال الشيخ الشوكاني - رحمه الله - ماملا خصه : لقد قال الشيطان للكافرين في هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ، ويقطع قلوبهم ، فأوضح لهم أولا : أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطله معارضه لوعده الحق من الله - تعالى - ، وأنه أخلفهم ما وعدهم به ...

ثم أوضح لهم ثانيا : بأنهم قبلوا قوله بما لا يتفق مع العقل ، اعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره .

ثم أوضح لهم ثالثا : بأنه لم يمكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن أي شيء مما يتمسك به العقلاء .

ثم نفى عليهم رابعا : ما وقعوا فيه ، ودفع لومهم له ، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم ، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل المحض الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل .

ثم أوضح لهم خامسا : بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة .. بل هو مثلهم في الوقوع في البليه ..

ثم صرح لهم سادسا : بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له - وهو إرشا كد مسع الله - تعالى - فتضاعفت عليهم الحصرات ، وتوالت عليهم المصائب .

وإذا كانت جملة ، إن الظالمين لهم عذاب أليم ، من تنمة كلامه - كما ذهب إليه البعض - فهو نوع سابع من كلامه الذي خاطبهم به ، فيكون قد أثبت

لهم الظلم ، وذكّر لهم جزاءه (١)

وبعد هذا الحديث المتنوع عن سبب عاقبة الكافرين . . . بين - سبحانه - ما أعدّه للمؤمنين من ثواب جزيل ، وأجر عظيم فقال - تعالى - :
« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم » .

أى : وأدخل الله - تعالى - في هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، الذين آمنوا بكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحة ، أدخلهم - سبحانه - جنات تجري من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار ، حالّة كونهم خالدين فيها خلوداً أبدياً لا موت معه ولا تعب .

وجاء التعبير بصيغة الماضي لتحقيق الوقوع ، وتمجيد البشارة وقوله « بإذن ربهم » ، أى : بإرادته - سبحانه - ووفيقه وهدايته لهم .

وقوله « تحييتهم فيها سلام » ، أى : تحييتهم في الجنة سلام لهم من خالقهم - عز وجل - ومن الملائكة ، ومن بعضهم لبعض .

كما قال - تعالى - « تحييتهم يوم يلقونه سلام » (٢)

وكما قال - تعالى - « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم . . . » (٣)

وكما قال - سبحانه - « ويلقون فيها تحية وسلاماً » (٤) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت بأبلغ أسلوب بوار أعمال الذين

(١) تفسير الشوكاني ج ٣ ص ١٠٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٤ .

(٣) سورة الرعد الآية ٢٣ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٧٠ .

كفروا ، وسوء احتوا لهم يوم القيامة ، كما بينت حصن عاقبة المؤمنين ، نهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

وبعد بين - سبحانه - حال الشهداء والأشقياء يوم القيامة ، أتبع ذلك بضرب مثل لها زيادة في التوضيح والتقرير فقال - تعالى - :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلاً ، كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (٢٦) يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضرب الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (٢٧) .

والخطاب في قوله « ألم تر » ، للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، أو لكل من يصلح للخطاب ، والاستفهام للتقرير ، والرؤية مستعملة في العلم الناشئ عن التأمل والتفكير في ملكوت السموات والأرض .

قال الآلوسى ماملخصه : قوله - تعالى - « ألم تر » ، هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب « وقد يذكر لمن ليس كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر في ذلك حتى أجرى مجرى المتل في ذلك ، بأن شبه من لم ير الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجري مع من رأى ، قصداً إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب ... » (١)

والمثل : يطلق على القول السائر المعروف للمأثلة ، مضر به لمورده .

وقوله « مثلاً » ، انتصب على أنه مفعول به اضرب ، وقوله « كلمة » ، بدل منه أو عطف بيان .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢ ص ١٦٠

والمراد بالكلمة الطيبة : كلمة الإسلام ، وما يترتب عليها من عمل صالح ،
وقول طيب .

قال الآلوسى رحمه الله : والمراد بالشجرة الطيبة - المشبه بها - النخلة
عند الأكثرين وروى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة
والضحاك وابن زيد . . .

وأخرج عبد الرزاق والترمذى وغيرهما عن شعيب بن الحجاب قال : كنا
عند أنس . فأتينا بطبق عليه رطب ، فقال أنس لأبي العالبيه : كل يا أبا العالبيه ،
فإن هذا من الشجرة التي ذكرها الله - تعالى - في كتابه ، ألم تر كيف ضرب
الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة . . .

وأخرج الترمذى - أيضا - والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه عن أنس
قال : أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقناع من بسر - أى بطبق من تمر
لم ينضج بعد - فقال : مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة . . . قال : هي النخلة ،
وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنها شجرة جوز الهند .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم أنها شجرة في الجنة ، وقيل كل شجرة
مثمرة كالنخلة ، وكشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك . ثم قال :

وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث ولم يتأت حمل دافيه على التمثيل لا ينبغي
العدول عنه ،^(١)

وكان الإمام الآلوسى بهذا القول يريد أن يرجح أن المراد بالشجرة الطيبة
النخلة ، لتصريح الآثار بذلك .

وقد رجح ابن جرير أن المراد بها النخلة فقال ماملخصه : واختلفوا في
في المراد بالشجرة الطيبة ، فقال بعضهم هي النخلة . . . وقال آخرون : هي
شجرة في الجنة . . .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٩١ .

وأولى القولين بالصواب في ذلك قول من قال هي النخلة ، لصحة الخبر
عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ذلك ... ، (١)

والمعنى : ألم تر - أيها المخاطب - كيف إختار الله - تعالى - مثلاً ،
ووضعه في موضعه لللائق به ، والمناسب له ، وهذا المثل لكلمتي الإيمان
والكفر ، حيث شبهه - سبحانه - الكلمة الطيبة وهي كلمة الإسلام ،
بالشجرة الطيبة ، أي النافعة في جميع أحوالها ، وهي النخلة .

ثم وصف - سبحانه - هذه الشجرة بصفات حسنة فقال : **وَأصْلُهَا**
ثابت .. د

أي : ضارب بعروقة في باطن الأرض ، فصارت بذلك راسخه الأركان
ثابتة البنيان .

• وفرعها ، أي : أعلامها وما أمتد منها من أغصان ، مشتق من الإفتراع
بمعنى الإعتلاء ، في السماء ، أي : في جهة السماء من حيث العلو والارتفاع ،
وهذا مما يزيد الشجرة ، جمالا وحسن منظر .

والمراد بالأكل في قوله - تعالى - **تَوْتَى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ** بإذن ربها .. ،
المأكول ، وهو الثمر الناتج عنها .

والمراد بالحين : الوقت الذي حددته الله - تعالى - للارتفاع بثمارها
من غير تعيين بزمن معين من صباح أو مساء

قال الشوكاني ما ملخصه : قوله **تَوْتَى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ** ، كل وقت ، بإذن
ربها ، بإرادته ومشيئته .

وقيل : المراد بكونها توتى أكلها كل حين : أي كل ساعة من الساعات ..

(١) تفسير ابن جرير ١٣ > ١٣٧

من ليل أو نهار في جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف . وقيل المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين .

وقيل : كل غدوة وعشيه ، وقيل : كل شهر

وهذه الأقوال متقاربة . لأن الحين عند جمهور أهل اللغة بمعنى الوقت يضع لقليل الزمان وكثيره . . . (١)

وبهذا نرى أن الله - تعالى - قد وصف هذه الشجرة بأربع صفات ، أولها أنها طيبة ، وثانيها . أن أصلها ثابت ، وثالثها : أن فرعها في السماء ، ورابعها : أنها تؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها .

وهذه الأوصاف تدل على فخامه شأنها ، وجمال منظرها ، وطيب ثمرها ، ودوام نفعها ، كما تدل على أن المشبه وهو الكلمة الطيبة ، مطابق في هذه الأوصاف للمشبه به وهو الشجرة الطيبة .

وقوله - سبحانه - : ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، بيان للحكمة التي من أجلها سميت الأمثال ، وهي التذكر والتفكير والاعتبار . أي : ويضرب الله - تعالى - الأمثال للناس رجاء أن يهتدوا ويتذكروا ما أمرهم - سبحانه - بتذكركه ، إذ ضرب الأمثال تقريب للبعيد ، وتقرير للقريب ، وتصوير للمعاني المعقولة بالصور المحسوسة .

وبعد أن بين - سبحانه - مثال كلمة الايمان ، أتبعه بمثال كلمة الكفر فقال : ومثل كلمة خبيثة ، وهي كلمة الكفر .

« كشجرة خبيثة ، أي قبيحة لانفع فيها ، ولا خير يرجى منها .

« إجتثت من فوق الأرض ، أي : إقتلعت جذعها وهيئتها من فوق الأرض ، لقرب عروقها وجذورها من سطحها .

(١) تفسير الشوكاني ٣ ص ١٠٦

يقال : اجتمعت الشيء اجتمعتا ، إذا اقبلتته وإستأصلته ، وهو إفتعال من لفظ الجئة وهى ذات الشيء .

وقوله : ما لها من قرار ، تأكيد لمعنى الاجتمعت لأن اجتمعت الشيء بسهولة ، سببه عدم وجود أصل له .

أى : ليس لها إستقرار وثبات على الأرض ، وكذلك الكافر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شيء .

والمراد بهذه الشجرة الخبيثة : شجرة الحنظل فعن أنس بن مالك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ومثل كلبه خبيثه كشجرة خبيثة ، هى الحنظلة ... » (١)

وقيل : شجرة الشوم : وقيل : شجرة الشوك ... وقيل كل شجر لا يطيب له ثمر وفى رواية عن ابن عباس أنها شجرة لم تخلق على الأرض ...

وقال ابن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينه ، جامعة لتلك الأوصاف التى وصفها الله بها .

وقوله - سبحانه - : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، بيان لفضل الله - تعالى - على هؤلاء المؤمنين ، ولحسن عاقبتهم ... »

والمراد بالحياة الدنيا : مدة حياتهم فى هذه الدنيا .
والمراد بالآخرة : ما يشمل سؤالهم فى القبر وسؤالهم فى مواقف القيامة .

والمعنى : يثبت الله - تعالى - الذين آمنوا بالقول الثابت أى : الصادق الذى لا شك فيه ، فى الحياة الدنيا ، بأن يجعلهم متمسكين بالحق ، ثابتين عليه دون أن يصرفهم عن ذلك ترغيب أو ترهيب .

(١) تفسير ابن كثير - ج ٤ ص ٤١٣

ويثبتهم أيضاً بعد مماتهم ، بأن يوقفهم إلى الجواب السديد عند سؤالهم في القبر وعند سؤالهم في موافق يوم القيامة .

قال الألويسي ما ملخصه : قوله - تعالى - « ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، أي : الذي ثبت عندهم وتمكن في قلوبهم ، وهو الحكمة الطيبة التي ذكرت صفاتها العجيبة » في الحياة الدنيا ، أي يثبتهم بالبقاء على ذلك مدة حياتهم ، فلا يرلون عند الفتن » وفي الآخرة ، أي بعد الموت وذلك في القبر الذي هو أون منزل من منازل الآخرة ، وفي موافق القيامة ، فلا يتلثمون إذ سئلوا عن معتقدكم هناك ، ولا تدهشهم الأحوال » (١)

هذا ، وقد ساق الامام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث التي وردت في سؤال القبر ، منها قوله : قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، أخبرني علقمة بن مرتد قال :

سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : « ويثبت الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة » (٢) وقوله « ويضل الله الظالمين ، بيان لسوء عاقبة أصحاب المثل الثاني وهم الكافرون .

أي : ويخلق فيهم الضلال عن الحق بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان .

« ويفعل الله ما يشاء ، فعله ، من تثبيت من يريد تثبيته ، وإضلال من يريد إضلاله ، حسبما تقتضيه إرادته وحكمته ، لإراد لأمره ، ولا معقب لحكمه .

(١) تفسير الألويسي ج ١٣ ص ١٩٤

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ من ص ١٣ إلى ص ٤٢٦ طبع دار

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الجاحدين الذين قابلوا نعم الله بالكفور والجحود ، وأمر المؤمنين بأداء ما كلفهم به - سبحانه - من عبادات وقربات ، وساق لهم ألوانا من الآلاء التي تفضل بها على عباده ، فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَارِ (٢٩) وَجَمَلُوا اللَّهَ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِالَالَ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَنَا كُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) » .

وقوله - سبحانه - « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ... » ، الخطاب فيه للذي - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يصلح للخطاب .

والاستفهام للتعجب من أحوالهم الذميمة .

وبدأوا من التبديل بمعنى التغير والتحويل . والمراد به : وضع الشيء في غير موضعه ومقابلة نعم الله بالجحود وعدم الشكر .

ونعمة الله التي بدلوها ، تشمل كفرهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسله الله - تعالى - كما تشمل إكرام الله

لهم - أي أهل مكة - بأن جعلهم في حرم آمن ، وجعلهم سدة بيته ...
ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعم ، بل أشركوا معه في العبادة
آلهة أخرى .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : « بدلوا نعمة الله ، لأن شكرها
الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا ، فكانهم غيروا الشكر إلى الكفر
وبدلوه تبديلا ... »

وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمه ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد
- صلى الله عليه وسلم - فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم ، أو
أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ،
فضربهم بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، وكذلك حين
أصروا وقتلوا يوم بدر ، قد ذهبت النعمة عنهم ، وبقي الكفر طوقا في
أعناقهم .. (١)

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قال البخاري قوله : « ألم تر إلى الذين
بدلوا نعمة الله كفرا ... » حدثنا علي بن عبد الله . حدثنا سفيان ، عن عمرو ،
عن عطاء ، سمع ابن عباس قال : هم كفار أهل مكة . .

ثم قال ابن كثير : وهذا هو الصحيح ، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ،
فإن الله - تعالى - بعث محمدا - صلى الله عليه وسلم - رحمة للعالمين ، ونعمة
للناس ؛ فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل
النار ... (٢)

وما ذهب إليه صاحب الكشاف وابن كثير - رحمهما الله - هو الذي
تطمئن إليه النفس ، لأن مشركي مكة ومن سار على مشاكلهم ، تنطبق عليهم
هذه الآية الكريمة .

(١) تفسير الكشاف ٢ ص ٢٧٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٢٦

وقد أورد بعض المفسرين هنا روايات في أن المراد بهؤلاء الذين بدلوا
قصة الله كفرة ، بنو أمية وبنو مخزوم . . . ولكن هذه الروايات بعيدة عن
الصواب ، ولا سند لها من النقل الصحيح (٣) .

وقوله « وأحلوا قومهم دار البوار ، معطوف على « بدلوا » ، لبيان رذيلة
أخرى من رذائلهم المتعددة .

والمراد بقومهم : أتباعهم وشركاؤهم في الكفر و«عناد حتى ماتوا
على ذلك ،

والبوار الهلاك والخسران ، ويطلق أيضا على الكساد . يقال : بار المتاع
يوارا ، إذا كسد ، إذا الكساد في حكم الهالك .

والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - إلى حال هؤلاء المشركين ، الذين قابلوا نعم الله
عليهم بالكفر والجحود ، وكافوا سببا في إنزال قومهم دار الهلاك والخسران .

وقوله - سبحانه - « جهنم يصلونها وبئس القرار » ، بيان لدار بوارهم
وهلاكهم أي : جهنم يصلون حرها رسيها ، وبئس القرار قرارهم فيها :

فقوله « جهنم » ، عطف بيان لدار البوار ، وقوله « يصلونها » ، في محل نصب
حال من جهنم ، يقال : صلى فلان النار - من باب تعب - إذا ذاق حرها -
وتقول : صليت اللحم أصليه - من باب رمى - إذا شويته .

والمخصوص بالذم محذوف . أي : بئس القرار هي أي : جهنم .

وفيه إشارة إلى أن حلولهم فيها كائن على وجه الدوام والاستمرار .

ثم بين - سبحانه - لونا ثالثا من ألوان أعمالهم القبيحة ، وعقائدهم الباطلة
فقال : « وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله . . »

والأنداد : جمع ندوه وهو مثل الشيء الذي يضاده وينافره ويتباعد عنه .

وأصله من ند البعير يند - بكسر للنون - ندا - بالفتح - إذا نذر وذهب على وجه شاردا .

وقوله ، ليضلوا ، قرأ الجمهور - بضم الياء - من أضل غيره إذا جعله ضالا .

أى أن هؤلاء الخاسرين لم يكتفوا بمقابله نعمة الله بالحجود ، وبإحلال قومهم دار البوار ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم جعلوا الله - تعالى - أمثالا ونظراء ، ليصرفوا غيرهم عن الطريق الحق ، والصراط المستقيم ، الذى هو لإخلاص العباد لله - تعالى - وحده .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضلوا ، - بفتح الياء - أى : ليستمروا فى ضلالهم ، فإنهم حين جعلهم الأنداد لله - تعالى - كانوا ضالين ، وجعلوا ذلك فاستمروا فى ضلالهم توها منهم أنهم على الصواب .

قال صاحب الكشاف : قرئ - ليضلوا ، بفتح الياء وضمها . فإن قلت : الضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد فما معنى اللام ؟

قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد ، كما كان الإكرام فى قولك : جئتك لتكرمنى نتيجة المجيء ، دخلته اللام ، وإن لم يكن غرضا ، على طريق التشبيه والتقريب ، (١) .

وقوله - سبحانه - د قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ، أمر منه - عز وجل - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يهدم بهذا المصير الأليم .

والتمتع بالشئ : الانتفاع به مع التلذذ والميل إليه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الخاسرين ، تمتعوا بما شئتم التمتع بما من شهوات ولذائذ ، فإن مصيركم إلى النار لا محالة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله د قل تمتعوا ، بما أنتم فيه من

الشهوات ، وبمازينته لكم أنفسكم من كفران للنعم ، فإن مصيركم إلى النار ،
أى مرجعكم إليها ليس إلا .

ولما كان هذا حالهم ، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه لا يعقلون عنه .
جعل - سبحانه - الأمر بمباشرة مكان النهى عن قربانه ، إيضاحاً لما تكون
عليه عاقبتهم ، وأنهم لا محالة صائرُونَ إلى النار . .

بجملة ، فإن مصيركم إلى النار ، تعليل للأمر بالتمتع ؛ وفيه من التهديد
مألاً يقادر قدره .

ويجوز أن تكون هذه الجملة جواباً لمخدوف دل عليه السياق كأنه قيل :
قل تمتعوا فإن دتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار .

والأول أولى والنظم القرآني عليه أدل ، وذلك كما يقال لمن يسعى في
مخالفة السلطان : اصنع ماشئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف ، (١) .
وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : د قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب
النار ، (٢) .

وقوله - تعالى - : د تمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ، (٣) .

وقوله - تعالى - : د لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم
مأواهم جهنم وبئس المهاد ، (٤) .

وبعد هذا الأمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بتهديد
الكافرين ، وجه - سبحانه - أمراً آخر له - صلى الله عليه وسلم - طلب منه
فيه ، مواصلة دعوة المؤمنين إلى الاستمرار في التزود من العمل الصالح فقال

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ١٠٩ .

(٢) سورة الزمر الآية ٨ . (٣) سورة لقمان الآية ٢٤ .

(٤) سورة آل عمران الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ .

- تعالى - : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلافة ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ، » .

قال الجمل : قوله « قل لعبادى ... الخ ، مفعول قل محذوف يدل عليه جوابه ، أى : قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا . ، وقوله : يقيموا وينفقوا مجزومان فى جواب الأمر : أى : إن قلت لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا ... يقيموا وينفقوا ...

ويجوز أن يكون قوله « يقيموا وينفقوا ، مجزومين بلام الأمر المقدره ، أى : ليقوموا الصلاة ولينفقوا ... » (١)

والمراد بإقامة الصلاة : المواظبة على أدائها فى أوقاتها المحددة لها ، وسع استيفائها لأركانها وسننها وآدابها وخشوعها ، ومع إخلاص النية عند أدائها لله - تعالى - .

والمراد بالإففاق : ما يشمل جميع وجوه الإففاق الواجبة والمستحبة .
والمراد بقوله « سرا وعلافة ، ما يتناول عموم الأحوال فى الحرص على على بذل المال فى وجوهه المشروعة .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المخلصين ، الذين آمنوا لإيماننا حقا ، قل لهم : ليستزبدوا من المواظبة على أداء الصلاة ، وعلى الإففاق بمارزقناهم فى جميع الأحوال ، بأن يجعلوا نفقتهم فى السر إذا كانت آداب الدين وتعاليمه تقتضى ذلك ، وأن يجعلوها فى العلن إذا كانت المنفعة فى ذلك .

والإضافة فى قوله « لعبادى ، للتشريف والتكريم لهؤلاء العباد المخلصين . ولم تعطف هذه الآية الكريمة على ما قبلها وهو قوله « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ، للإبذان بتباين حال الفريقين ، واختلاف شأنهما ...

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٥ .

ومفعول « ينفقوا » مخنوف والتقدير ينفقوا شيئاً مما رزقناهم .

وعبر - سبحانه - بمن المفيدة للتبحيض في قوله « مما رزقناهم » للإشعار بأنهم قوم عتلاء يتعدون في إنفاقهم عن الإسراف والتبذير ، عملاً بقوله - تعالى - : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » (١) .

وهذا التعبير - أيضاً - يشر بأن هذا المال الذي بين أيدي عباده - سبحانه - ماهو إلا رزق رزقهم الله إياه ، ونعمة أنعم بها عليهم ، فعليهم أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر ، بأن ينفقوا جزءاً منها في وجوه الخير .

وقوله « سرا وعلانية » منصوبان على الحال أي : مسرين ومبطنين ، أو على المصدر أي : إنفاق سر وإنفاق علانية .

وقدم - سبحانه - إنفاق السر على العلانية للتنبية على أنه أولى الأمرين في معظم الأحوال لبعده عن خواطر الرياء ، ولأنه أستر للمتصدق عليه .

وقوله - سبحانه - « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق » مؤكده لمضمون ما قبله من الأمر بإقامة الصلاة وبالإنفاق في وجوه الخير بدون تردد أو إبطاء .

ولفظ « خلاق » مصدر خاللت بمعنى صاحبت وصادقت ، أو جمع خليل بمعنى صديق ، أو جمع خلة بمعنى الصداقة كقوله وقلال .

أي : قل لهم - أيها الرسول الكريم - بأن من الواجب عليهم أن يكثروا ويدوموا على إقام الصلاة وعلى الإنفاق مما رزقهم - سبحانه - ، من قبل أن يفاجئهم يوم القيامة ، ذلك اليوم الذي لا تقبل فيه المعاوضات ، ولا تنفع فيه شفاعة الصديق لصديقه ، وإنما الذي يقبل وينفع في هذا اليوم هو العمل الصالح الذي قدمه المسلم في دنياه .

فإنجزة التكريمة تفيده حضا آخر على إقام الصلاة وعلى الإنفاق عن طريق

(١) سورة الفرقان الآية ٦٧ .

انتذ كير للناس بهذا اليوم الذي تنتهى فيه الأعمال ، ولا يمكن فيه استبراك ما فاتهم ، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات .

كما تفيد أن المواظبة على أداء هاتين الشعيرتين ، من أعظم القربات التي يتقرب بها المسلم إلى خالقه - سبحانه - ، والتي تكون سببا في رفع الدرجات يوم القيامة .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى - « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مهازقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والسكافرون هم الظالمون » (١) .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه التي تستوجب شكره وطاعته ردا لخالص العباد له والتي تدل على كمال قدرته وعلمه ووحدانيته فقال - تعالى - :
« الله الذي خلق السموات والأرض ... »

أى : الله - تعالى - وحده هو الذي أوجد السموات والأرض وما فيها من أجرام علوية وسفلية بدون مثال سابق .

وأفتتحت الآية الكريمة بلفظ الجلالة ، لما في ذلك من تربية المهابة ، ومن لفت أفتار المشركين إلى ما هم فيه من ضلال حتى يقلعوا عنه .

وجاء الخبر بصيغة الموصول ، لأن الصلة معلومة الثبوت له - سبحانه - والمشركون لا ينازعون في ذلك ، كما قال - تعالى - : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ... »

وقوله « وأنزل من السماء ماء فأخرج به التمرات رزقا لكم ... » ، بيان للون آخر من ألوان نعمه على خلقه .

والمراد بالسماء هنا : السحاب ، أوجهة العلو .

أى : وأنزل - سبحانه - من المزن أو السحاب ماء ، كثيرا هو المطر ،

« فأخرج به » أى بذلك الماء « من الثمرات ، المتعددة الأنواع والأصناف .
« رزقا لكم ، تفتفعون به ، وتمتعون بجمال منظره وطيب مطعمه .

ثم حكى - سبحانه - ألوانا أخرى من نعمه فقال : « وسخر لكم الشمس والقمر
لتجربى فى البحر بأهرة وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر
دائمين ، وسخر لكم الليل والنهار ، .

وقوله « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتطويع والقدرة على التصرف
فى الشئ والانتفاع به .

والفلك : ما عظم من السفن ، ويستعمل لفظه فى الواحد والجمع ، والظاهر
أن المراد به هنا الجمع لقوله - سبحانه - « لتجربى » ، بناء التأنيث .

أى : « وسخر لكم » - سبحانه - السفن الضخمة العظيمة ، بأن ألهمكم
صنعها ، وأقدركم على استعمالها « لتجربى فى البحر » ، إلى حيث تريدون « بأمره »
وإذنه ومشيتته ، لا بإذقكم ومشيتكم ، إذ لو شاء - سبحانه - لقلبها بكم .

« وسخر لكم الأنهار » ، بأن جعلها معدة لانتفاعكم ، إذ منها تشربون ،
ومنما تسقون دوابكم وزروعكم ، وعليها تسيرون بسفنكم إلى حيث تريدون .

« وسخر لكم الشمس والقمر دائمين » ، أى دائمين فى إصلاح ما يصلحان
من الأبدان والنبات وغيرهما . أو دائمين فى مدارهما المقدر لهما بدون اضطراب
أو اختلال . ولا يفتران عن ذلك مادامت الدنيا .

وأصل الدأب : الدوام والعادة المستمرة على حالة واحدة . يقال : دأب
فلان على كذا يدأب دأبا ، إذا دأوم عليه وجد فيه .

وه « وسخر لكم الليل والنهار » ، بأن جعلهما متعاقبين ، يأتى أحدهما فى
أعقاب الآخر ، فنتفعون بكل منهما بما يصلح أحوالكم .

فالليل تفتفعون به فى راحتكم ومناهاكم . . . والنهار تفتفون به فى معاشكم
يرطلب رزقكم قال - [Made searchable using Scribetoold.com](https://www.scribetoold.com) - « لنا النهار معاشا » .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله « وآتاكم من كل ما سألتموه . . . »
أى : وأعطاكم - فضلا عما تقدم من النعم - بعضا من جميع ما سألتموه
لإياه من نعم ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته التي لا تعلمونها كما قال - تعالى - :
« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ،
إنه بعباده خبير بصير ، (١) .

قال الجمل ماملخصه : قوله « وآتاكم من كل ما سألتموه ، أى : كل نوع
أو كل صنف مما سألتموه أى : شأفكم أن تسألوه لاحتياجكم إليه ، وإن لم تسألوه
بالفعل . . .

وفى « من ، قولان : أحدهما أنها زائدة في المفعول الثانى أى : آتاكم كل
ما سألتموه . . .

والثانى أن تكون تبعيضية أى : آتاكم بعض جميع ما سألتموه نظر الحكم
ولصالحكم ، وعلى هذا فالمفعول محذوف تقديره : وآتاكم شيئا من كل
مما سألتموه ، وهو رأى سيبويه . . . (٢)

وجملة « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، مؤكدة لمضمون ما قبلها .

أى : وإن تحاولوا عد نعم الله عليكم ، وتحاولوا تحديد هذا العدد ، لن
تستطيعوا ذلك لسكثرة هذه النعم ، وخفاء بعضه عليكم .

والإحصاء : ضبط العدد وتحديدته ، مأخوذ من الحصى وهو صغار الحجارة ،
لأن العرب كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنباً للخطأ .

قال ابن كثير : يخبر - سبحانه - عن عجز العباد عن تعداد نعمه فضلا
عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب - رحمه الله - : « إن حق الله أنقل

(١) سورة الشورى الآية ٢٧ .

(٢) « أشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٦ .

من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين ، .

وفي صحيح البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول : لك الحمد غير مكفي - أي لم يكفه غيره بل هو - سبحانه - يكفي غيره - ولا مودع - أي متروك حمده - ، ولا مستغنى عنه ربنا - أي هو الذي يحتاج إليه الخلق - ، (١) .

والمراد بالإنسان في قوله « إن الإنسان اظلم كفار » نوع معين منه وهو الكافر كما في قوله - تعالى - ، ويقول الإنسان أنذا مات لسوف أخرج حيا ، .

أي إن الإنسان الكافر لشديد الظلم لنفسه بعبادته لغير الله - تعالى - ، ولشديد الجور والكفران لنعمة - عز وجل - .

ويرى بعضهم أن المراد بالإنسان هنا الجنس .

قال الشوكاني قوله - سبحانه - : « إن الإنسان اظلم » أي لنفسه ياغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل إنسان . وقال الزجاج : إن الإنسان هنا اسم جنس يقصد به الكافر خاصة ، كما في قوله - تعالى - ، والعصر إن الإنسان لني خسر ، ، كفار ، أي : شديد كفران نعم الله عليه ، جاحد لها غير شاكر لله عليها كما ينبغي ويجب عليه ، (٢) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ابتدأت ببيان سوء عاقبة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وثبتت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم - بأن يحض المؤمنون الصادقين على الاستزادة من إقامة الصلاة ومن الإنفاق في سبيل الله .. ثم ساققت عشر نعم تدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وعلمه

(١) تفسير ابن كثير - ج ٤ ص ٤٣٠

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني - ج ٣ ص ١١٠ .

وقدرته . وهذه النعم هي خلق السموات والأرض ، وإزالة المطر من السماء ، وإخراج الثمرات به ، وتسخير الفلك في البحار ، وتسخير الأنهار ، وتسخير الشمس والقمر دائبين ، وتسخير الليل والنهار .

ثم ختمت ببيان أنه - سبحانه - قد أعطى الناس - فضلا عن كل ذلك - جميع ما يحتاجون إليه في مصالحهم على حسب حكيمته ومشيبته ، ولكن الناس - إلا من عصم الله - لا يقابلون نعمه - سبحانه - بما تستحقه من شكر ، لشدة ظلمهم وكثرة جحودهم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الدعوات التي تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وهي دعوات تدل على شكره لحالقه ، وحسن صلته به ، ورجائه في فضله . . فقال - تعالى - :

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَن تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مَقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دَعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) » .

هذه بعض الدعوات التي ابتهل بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وقد تقبلها الله - تعالى - منه ، قبولا حسنا .

وفي هذه الدعوات تنبيه لمشركي مكة الذين بدنوا نعمة الله كثرا ، والذين جحدوا نعم الله عليهم ، بأن من الواجب عليهم أن يشوبوا إلى رشدهم ، وأن يستجيبوا للدعوة الحق ، وأن يقتدوا بإبراهيم - عليه السلام - في إيمانه وشكره خالقه - سبحانه - .

و إذ ، ظرف للماضى من الزمان ، وهو منصوب على المفعولية لفعل محذوف .

و رب ، منادى بحرف نداء محذوف أى : يارب .

والمراد بالبلد : مكة المكرمة شرفها الله - تعالى - .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن قال إبراهيم مناد ياربه : يارب اجعل هذا البلد ذا أمن وسلام واستقرار .

وقدم إبراهيم - عليه السلام - في دعائه نعمة الأمن على غيرها ، لأنها أعظم أنواع النعم ، ولأنها إذا فقدتها الإنسان ، اضطرب فكره ، وصعب عليه أن يتفرغ لأمر الدين أو الدنيا بنفس مطمئنة ، وبقلب خال من المنهصات والمزعجات ...

قال الإمام الرازى : سئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة ؟ فقيل : الأمن أفضل ، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان ، ولا يئمنها هذا الكسر من الإقبال على الرعى والأكل والشرب .

ولو أنها ربطت - وهى سليمة - فى موضع ، وربطت بالقرب منها ذئب ، فإنها تمسك عن الأكل والشرب ، وقد نستمر على ذلك إلى أن تموت .

وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف ، أشد من الضرر الحاصل من ألم الجوع (١) .

(١) تفسير الفخر الرازى > ١٩ ص ١٢٥ .

وقال الإمام ابن كثير مالم يخصه : يذكر الله - تعالى - في هذا المقام -
محتجا على مشركي مكة الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم - بأن مكة
إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله - تعالى - وحده ، وأن إبراهيم قد
تبرأ من عبد غير الله . وأنه دعا لمكة بالأمن وقد استجاب الله له فقال - تعالى - :
« أو لم يروا أما جعلنا محرما آمنا وبمخطف الناس من حولهم . . . » وقال -
تعالى - « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه
آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا . . . » (١)

وقال صاحب التكمياف : فإن قلت : أي غرق بين قوله - تعالى - في سورة
البقرة « رب اجعل هذا بلدا آمنا . . . » (٢) وبين قوله هنا « رب اجعل هذا
البلد آمنا . . . » ؟

قلت : قد سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها
ولا يخافون . وسأل في الثاني أن يخرج من صفة كان عليها من الخوف إلى
ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمنا . . . » (٣)

وقوله - سبحانه - « وأجنبتني وبني أن نعبد الأصنام » حكاية لدعوة
أخرى من الدعوات التي تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى خالقه
- سبحانه - .

وقوله « وأجنبتني » بمعنى وأبعدني مأخوذ من قولك جنبت فلانا عن كذا ،
إذا أبعده عنه ، وبعده في جانب آخر ، وفعله جنب من باب نصر .
والمراد ببنيه : أولاده من صلبه ، أوهم ومن تناسل معهم .
والأصنام جمع صنم ، وهو التمثال الذي كان مشركو العرب يصنعونه
من الحجر ونحوه لكي يعبدوه من دون الله - تعالى - .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٣١ .

(٢) الآية ١٢٦ .

(٣) تفسير التكمياف ج ٢ ص ٢٧٩ .

والمعنى : أسألك يا ربى أن تجعلنى مكة بلداً آمناً ، كما أسألك أن تعصمنى
وتعصم ذريتى من بعدى من عبادة الأصنام ، وأن تجعل عبادتنا خالصة لوجهك
الكريم .

وقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى ، أنه قد أجابه فى بعض ذريته درن
بعض ، .

ومن ذلك قوله - تعالى - د سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين .
لأنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه
وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ، (١) .

وقوله : د رب إنهن أضللن كثيرامن الناس . . . ، تعليل لسؤال إبراهيم
ربه أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام .

أى : يارب لقد تضرعت إليك بأن تعصمنى وبنى عن عبادة الأصنام ،
لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق ، وعن الهداية
إلى الصراط المستقيم .

وأُسند الإضلال إليها مع أنها جمادات لا تعقل ، لأنها كانت سببا فى إضلال
كثير من الناس ، فكأنها أضلتها ، فنسبة الإضلال إليها مجازية . من باب
نسبة الشئ إلى سببه ، كما يقال : فلان فتنته الدنيا وأضلته ، وهو إنما فتن
وضل بسببها .

وقوله - سبحانه - د فن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ،
بيان لموقفه - عليه السلام - من المهتدين والضالين .

أى : فن تبعنى من الناس فى دىنى وعقيدتى ، فإنه يصير بهذا الإلتباع من
أهل دىنى وهو دين الإسلام ، ومن عصانى ولم يقبل الدخول فى الدين الحق ،
فإنى أفوض أمره إليك ، فأنت - سبحانه - لاتسأل عما تفعل وغيرك يسأل .

(١) سورة الصافات الآيات من ١٠٩ - ١١٣ .

فالجمله الكريمة تدل على الأدب السامى ، والخلق العالى ، الذى كان يتحلى به إبراهيم - عليه السلام - فى مخاطبته لربه - عز وجل - حيث فوض الأمور إليه دون أن يقطع فيها برأى ، كما تدل على رقة قلبه وشفقته على العصاة من الوقوع فى العذاب الأليم .

وشبيهه بهذه الآية ما حكاه - سبحانه - عن عيسى - عليه السلام - فى قوله :
« إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » (١) .

هذا ، ولا ترى وجها لما ذهب إليه بعض المفسرين ، من أن قول إبراهيم - عليه السلام - « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ، كان قبل أن يعلم بأن الله لا يغفر الشرك أو أن المراد بالمعصية هنا ما دون الشرك ، أو أن المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك ... (٢) .

تقول : لا ترى وجها لكل ذلك ، لأن الجمله الكريمة ليس المقصود بها الدعاء بالمغفرة لمن عصى ، وإنما المقصود بها تفويض أمر العصاة إلى الله - تعالى - إن شاء غفر لهم ورحمهم . وإن شاء عذبهم .

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الأدعية التى تضرع بها إبراهيم إليه - تعالى - فقال : « ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ... »

و « من » ، فى قوله « من ذريتى » ، للتبهيض .

والوادى : هو المكان المنخفض بين مرتفعات ، والمقصود به وادى مكة المكرمة .

والمعنى : يا ربنا إني أسكنت بعض ذريتى وهو ابنى إسماعيل ومن سيولده ، بواد غير زرع قريبا من بيتك المحرم ، أى : الذى حرمت التعرض له

(١) سورة المائدة الآية ١١٨

(٢) راجع تفسير الألوسى ج ١٢ ص ٢١١

بسوء توقيرا وتعظيما ، والذي جعلته مثابة للناس وأمتنا ، وفضيلته على غيره من الأماكن .

وقوله «ربنا ليقموا الصلاة» بيان للباعث الذي دفعه لإسكان بعض ذريته في هذا المكان الطيب .

أى : ياربنا إني أسكنتهم في هذا المكان ليتفرغوا لإقامة الصلاة في جوار بيتك ؛ ربّيعمره بذكرك وطاعتك .

فاللام في قوله « ليقموا » للتعليل وهي متعلقة بأسكنت .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لمزيد فضلها ، والسكّان العناية بشأنها . . .

قال القرطبي : تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ، لأن معنى «ربنا ليقموا الصلاة» ، أى : أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقموا الصلاة فيه .

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - ؟

فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدى هذا بمائة صلاة . . . » وقد روى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم - حديث ابن الزبير ، (١) - وقوله « فاجعل أئمة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروني » دعاء جامع لمطالب الدين والدنيا ، لأن الناس يذهبون إلى البيت

(١) : اجمع تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٧١

الحرام لتتقرب إلى الله - تعالى - ، وليتبادلوا المنافع عن طريق التجارة وغيرها مع السكان المجاورين لهذا البيت المعمور .

والأقنعة : جمع فؤاد . والمراد بها القلوب والنفوس .

والمراد بالناس في قوله « من الناس » المؤمنون منهم ، لأنهم هم الذين يذهبون إلى البيت الحرام ، ليشهدوا منافع لهم ، وليتقربوا إليه - سبحانه - بحج بيته : وتهوى إليهم : أى تسرع إليهم . يقال : هوى - بفتح الواو - هوى - بكسرهما - إذا أسرع في السير ، ومنه قو لهم : هوت الناقة تهوى هوى ، إذا عدت عدوا شديدا ...

والأصل فيه أن يتعدى باللام ، وعدى هنا يالى لتضمنه معنى تميل وتسرع . أى ياربنا إنى تركت بعض ذريتي فى جوار بيتك ، فأسألك يا إلهى أن تجعل نفوس الناس وقلوبهم تحن إلى هذا المكان ، وتطير فرحا إليه ، وارزق من تركتهم ودبعة فى جوار بيتك من الثمرات المختلفة ما يغنيهم ويشبعهم لعلمهم بهذا العطاء الجزيل يزدادون شكرا لك ، ومساعدة فى طاعتك وعبادتك .

وقال - سبحانه - « فاجعل أقنعة من الناس تهوى إليهم ولم يقل فاجعل الناس تهوى إليهم ، للإشارة إلى أن سعى الناس إليهم يكون عن شوق ومحبة حتى لكان المسرع إلى هذا الجوار الطيب هو القلب والروح وليس الجسد وحده .

قال صاحب الكشف ماملخصه : وقد أجاب الله - تعالى - دعوة إبراهيم - عليه السلام - فجعل البيت الحرام حراما آمنا تجي إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنه ، ثم فضله فى وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا ، وفى أى بلد من من الشرق والغرب ، ترى الأعجوبة التى يريكها الله بواد غير ذى زرع - ، وهى إجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد ، وليس ذلك من آياته

عجيب ، متعنا الله بسكنى حرمه ، ووقفنا لشكر نعمه وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم، ورزقنا طرفا من سلامة ذلك القلب السليم، (١) .

هذا ، وقد ساق الإمام الألوسي عند تفسيره لهذه الآية قصة إسكان إبراهيم لبعض ذريته في هذا المكان فقال مامليخه : وهذا الإسكان إنما كان بعد أن حدث ما حدث بين إبراهيم وبين زوجته ساره ، وذلك أن هاجر أم إسماعيل كانت أمة من القبط لسارة . فوهبتها لإبراهيم عليه السلام - فتزوجها فولدت له إسماعيل . فدبت الغيرة في قلب سارة ولم تصبر على بقائها معها فأخرج إبراهيم - عليه السلام - هاجر وإبناها إلى أرض مكة ، فوضعها عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء . ثم قفى منطلقا فتبعته هاجر ، فقالت له : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس .

قالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له : آفة أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذا لا يضيعنا ، ثم رجعت .

وأطلق إبراهيم - عليه السلام - حتى إذا كان عند الثانية حيث لا يرواه ، أستقبل بوجه البيت - وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالراية - ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع الآية .

ثم لأنها جعلت ترضع ابنها وتشرب مما في السقاء حتى إذا نفذ ما في السقاء ، عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلبط - أى يتلوى ويتمرغ - من شدة العطش ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم أستقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ، فلم

تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادي ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، ففطمت ذلك سبع مرثبات ، ولذلك سعى الناس بينهما سبعا .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه تريد نفسها ، ثم تسمعت تسمعت أيضا صوتا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتعرف من في سقاتها وهو يفور ، فشربت وأرضعت ولدها ، وقال لها الملك : لا تخافي الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله - تعالى - بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله - تعالى - لن يضيع أهله ...

ثم إنه مرت بهما رفقة من جرحم ، فرأوا طائرا عاتقا - أي يتردد على الماء ولا يمشي - فقالوا : لا طير إلا على الماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا بالماء ، فأتاهم فقصدوه وأم إسماعيل عنده ، فقالوا : أشركنا في مالك شركاك في ألباننا ، ففعلت ، فلما أدرك إسماعيل - عليه السلام - زوجته امرأة منهم ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الدعوات الخاشعة التي تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . .

أي : ياربنا إنك وحدك العالم بما تخفيه نفوسنا من أسرار ، وما تعلمه وتظهره من أقوال ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليك سواء ، فأنت يا إلهي لا يخفى عليك شيء من الأشياء : سواء أكان هذا الشيء في الأرض أم في السماء أم في غيرهما .

(١) تفسير الألوسي ج ١٣ ص ٢١٢ وراجع صحيح البخاري تجد فيه حديثا

طويلا في هذا الموضوع .

وإنما ذكر السماء والأرض لأنها المشاهدتان للناس، وإلا فعله - سبحانه - محيط بكل ما في هذا الكون .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم - عليه السلام - في مقام شكره لله على نعمه فقال - تعالى - : الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربي لسميع الدعاء . .

والحمد : هو الثناء باللسان على من صدرت منه النعمة، وأل فيه للاستغراق أى : جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين ؛ لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء والحمد فهو صادر عنه - سبحانه - إذ هو الخالق لكل شيء .

وعلى في قوله « على الكبر » للاستعلاء المجازى، وهى بمعنى مع . أمر وهب لي مع الكبر الذى لا تحصل معه فى الغالب ولادة . . .

وإسماعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم، وقد رزقه الله به من زوجه هاجر كما سبق أن أشرنا - ، أما إسحاق فكان أصغر من إسماعيل ، وقد رزقه الله به من زوجه ساره .

قال الفخر الرازى : أعلم أن القرآن يدل على أنه - تعالى - إنما أعطى إبراهيم - عليه السلام - هذين الولدين على الكبر والشيخوخة ، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن ، وإنما يرجع فيه إلى الروايات . فقيل لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعا وتسعين سنة ، ولما ولد إسحاق كان سنه مائة وإثنى عشرة سنة . .

وإنما ذكر قوله « على الكبر » ، لأن المنة بهية الولد فى هذا السن أعظم ، من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة فى وقت اليأس من أعظم النعم ، ولأن الولادة فى هذه السن المتقدمة كانت آية لإبراهيم ، (١) .

(١) تفسير الفخر الرازى ح ١٩ ص ١٤٨

وجملة « إن ربي لسميع الدعاء » تعليل لجملة « وهب لي على الكبر ، أي :
وهب لي على الكبر هذين الولدين ، لأنه - سبحانه - سمع دعائي وتقبله ،
وأجاب طلبي دون أن يخيبني .

فالسَّمْعُ هنا مستعمل على سبيل المجاز في أجابة المطلوب ، ومنه قول
القائل : سمع الملك كلام فلان ، إذا اعتد به وقبله وعمل بمقتضاه . وهو من
إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول . أي : إن ربي يسمع دعائي ويحبيبه .
ثم ختم إبراهيم - عليه السلام - تلك الدعوات الطيبات التي تضرع بها
إلى ربه ، بما حكاه الله عنه في قوله : « رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي
ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . »

أي : يارب اجعلني من عبادك الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها بإخلاص
وخشوع ، وأجعل من ذريتي من يقتدى بي في ذلك ، كما سألك يارب أن
تقبل دعائي ولا تخيبني في مطلوب أسألك إياه .

كما سألك - يا إلهي - أن تغفر لي ذنوبي ، وأن تغفر لوالدي وللمؤمنين ،
يوم يقوم الناس للحساب ، فتجازي كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو
عقاب .

ولإنما طلب إبراهيم لوالديه المغفرة ، قبل أن يتبين له أن والده عدو لله ،
فلما تبين له ذلك تبرأ منه .

قال - تعالى - « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها
إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، (١) . »

أما أمه فقال بعضهم إنها كانت مؤمنة ، وقال آخرون لعلمها توفيت قبل
قبوته .

وبعد أن حكى - سبحانه - تلك الدعوات الطيبات التي تضرع بها إبراهيم

إلى ربه ، والتي تضمنت أمهات الفضائل ، كسلامة القلب ، وطهارة النفس ،
ورقة العاطفة ، وحسن المراقبة ، وحب الخير لغيره ...

بعد كل ذلك حكى - سبحانه - أحوال الظالمين يوم القيامة ، وأقر لهم
في ذلك اليوم الشديد ، ورده - تعالى - عليهم ، والأسباب التي أدت إلى
خسرانهم ... فقال - تعالى - :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِمِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ، لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ
طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ
الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِيبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرَّسُولَ
أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي
مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ
الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَهَدَى اللَّهُ مَكْرَهُمْ ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ
لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنْ اللَّهُ
عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ،
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي
الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَفْشَى وَجوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ
اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ
وَلِيُنذِرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ، وَلِيَذَكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ (٥٢) » .

قال الإمام القرطبي : قوله - تعالى - ، وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ

الظالمون ... وهذا تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن عجزه عن
أفعال المشركين ، ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى : أصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم
المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله لإمهال العصاة
مدة . قال ميمون بن مهران : هذا وعبد للظالم ، وتعزية للمظلوم ، (١) .

والخطاب فى د ولا تحسبن .. يجوز أن يكون للنبي - صلى الله عليه وسلم -
لقصد زيادة تثبيته على الحق ، ودوامه على ذلك ، ويجوز أن يكون لكل من
يصلح للخطاب .

والغفلة : سهو يعتري الإنسان بسبب قلة تيقظه وانتباهه ، ولا شك أن
ذلك محال فى حق الله - تعالى - ، لذا وجب حمل المعنى على أن المراد بالغفلة
هنا : ترك عقاب المجرمين .

والمراد بالظالمين : كل من انحرفوا عن طريق الحق ، واتبعوا طريق
الباطل ، ويدخل فيهم دخولا أولياً مشركو مكة ، الذين أبوا الدخول فى
الإسلام الذى جاءهم به النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله : وإنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، استئناف وقع تعليلاً
لنهي السابق .

وقوله : تشخص ، من الشخص ، بمعنى رفع البصر بدون تحريك . يقال :
شخص بصر فلان - - من باب خضع - فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وجعل
لا يطرف من شدة الخوف والفرع .

والمعنى : ولا تحسبن - أيها الرسول الكريم - أن الله تعالى - تارك
عقاب هؤلاء الظالمين ، الذين كذبوك فى دعوتك ، كلاً لن يترك الله - تعالى -
عقابهم ، وإنما يؤخره ليوم هائل شديد ، هو يوم القيامة الذى ترتفع فيه
أبصار أهل الموقف ، فلا تطرف أجفانهم من هول ما يرونه .

ثم بين - سبحانه - بعض أحوال هؤلاء الظالمين في هذا اليوم العظيم ، فقال - تعالى - : « مهطعين مقنعي رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفتدتهم هواء ، .

والإهطاع : السير السريع . يقال : أهطع فلان في مشيه فهو يهطع إهطاعا إذا أسرع في سيره بذلة واضطراب .

و « مقنعي رؤوسهم ، أى رافعيها ، يقال : أقنع فلان رأسه ، إذا نصبه ورفعته دون أن يلتفت يمينا أو شمالا . وقيل ، إفتاع الرؤوس طأطأته وانكاسها والأفتدة : جمع فؤاد ، والمراد بها القلوب .

والمعنى : أن هؤلاء الظالمين يخرجون من قبورهم في هذا اليوم مسرعين إلى الداعي بذلة واستكائة ، كما سراع الأسير الخائف ، رافعي رؤوسهم إلى السماء مع زدامة النظر بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء .

« لا يرتد إليهم طرفهم ، أى : لا تتحرك أجفان عيونهم ، بل تبقى مفتوحة بدون حراك لهن ما يشاهدونه في هذا اليوم العصيب .

« وأفتدتهم هواء ، أى : وقلوبهم فارغة خالية عن الفهم ، بحيث لا تهى شيئا من شدة الفزع والدهشة . ومنه قولهم في شأن الأحمق والجبان . قلبهما هواء ، أى لا رأى فيه ولا قوة .

وأفرد هواء وإن كان خبرا عن جمع لأنه في معنى فارغة أو خالية .

قال - تعالى - « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا . . . » أى خاليا من كل شيء إلا من التفكير في شأن مصير ابنها موسى - عليه السلام ،

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الظالمين في هاتين الآيتين بحملة من الصفات الدالة على فزعهم وحيرتهم .

وصفهم أولا بإسراعهم إلى الداعي

في ذلة وانكسار، ووصفهم ثالثا برفع رءوسهم في حيرة واضطراب،
ووصفهم رابعا: بانفتاح عيونهم دون أن تطرف من شدة الوجع، ووصفهم
خامسا بخلو قلوبهم من إدراك أي شيء بسبب ما اعتراهم من دهشة ورعب.
رقوله - سبحانه - : « وأفتتتهم هواه »، من باب التشبيه البليغ الذي حذف
فيه الأداة، والتقدير: وقلوبهم كالهواء في الخلو من الإدراك من شدة الهول
ثم أمر الله تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يحذر الناس من أهوال
هذا اليوم، وأن يقدموا العمل الصالح الذي يفهمهم فقال - تعالى - : « وأنذر
الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب
دعوتك ونتبع الرسل »

والإنذار: التخويف من ارتكاب شيء أسوء عاقبته .

والمراد بالناس: جميعهم، وقيل المراد بهم الكفار. وبدوا أن الأولى أرجح
لأن الإنذار كما يكون للمؤمن يكون للكافر، إلا أن المؤمن يستجيب للنصح
فينجو من العقاب، والكافر لا يستجيب فيجزل عليه العذاب .

والمعنى: وخوف - أيها الرسول الكريم - الناس من أهوال يوم القيامة،
ومرهم بأن يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح، من قبل أن يحل عذابه
بالظالمين منهم فيقولون: يا ربنا أعدنا إلى الحياة مرة أخرى، وأخر أعمارنا
وحسابنا إلى وقت قريب، حتى نستطيع فيه أن نستجيب لدعوتك التي تأمرنا
بإخلاص العبادة لك، وأن نتبع رسلك في كل ما أمرتنا به ونتدارك ما فرطنا
فيه من أعمال الدنيا ...

قال الجمل: وقوله: « يوم يأتيهم العذاب . . . » مفعول ثان لأنذر على
سبب المضاف، أي: أنذرهم أهواله وعظائمه، فهو مفعول به لا مفعول فيه،
إذ لا إنذار في ذلك اليوم، وإنما الإنذار يقع في الدنيا . . . (١).

ولاء اقتصر - سبحانه - على ذكر إتيان العذاب في هذا اليوم ، مع كون الثواب يحصل فيه - أيضا ، لأن المقام مقام تهديد وزجر ، فكان من المناسب ذكر أهواله وشدائده .

وجمع لفظ الرسل فقال : « نجب دعوتك وتتبع الرسل ، للإشارة إلى أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة في جوهرها وأصولها ، وهي إخراج العباد إلى الله - تعالى - ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وفي معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - « حتى إذا جاء أحدكم الموت قال رب ارجعوني . لعل أعمل صالحا فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (١) .

وقوله - تعالى - : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » (٢) .

وجملة « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما ليكنم من زوال ، مقول لقول محذوف .

والزوال : الانتقال من مكان إلى آخر ، أو من حال إلى حال ، والمراد به هنا : انتقالهم من قبورهم إلى الحساب يوم القيامة .

والمعنى : أن هؤلاء الظالمين عندما يقولون يا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل .

يقال لهم من قبل الله والملائكة على سبيل التوبيخ والتبكيت : أولم تكونوا - أيها الظالمون - تقسمون بالإيمان المغلظة في الدنيا ، بأنكم بعد موتكم ستبقيون في قبوركم إلى أن تبلى أجسادكم ، وأنه ليس بعد ذلك من بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .

قال - تعالى - « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » (٣)

(١) سورة المؤمنون . الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) سورة السجدة . الآية ٣٨ .

فالجملۃ السکریمۃ تعنی رفض مطالبهم بأبلغ أسلوب، حتی یزدادوا حزنا علی
حزنیهم . وحسرة علی حسرتهم .

وجملۃ « ما لکم من زوال ، جواب القسم ،
وقوله - سبحانه - : وسکتتم فی مساکن الذین ظلموا أنفسهم ... ،
معطوف علی « أقسمتم ... » .

والمراد بالسکنی : الحلول فی أماکن الظالمین لوقت یکنی للاتعاظ والاعتبار
وکفار قریش کانوا یمرون بديار قوم تمود فی رحلتهم إلی الشام ، وكانوا
یخطون رحلتهم هناك كما كانوا یمرون علی ديار قوم عاد فی رحلتهم إلی الین .
والمعنی : لقد أقسمتم - أيها الضالون - بأنکم مالکم من إنتقال من دار
الدنیا إلی دار الآخرة ، وحللتکم فی مساکن القوم الظالمین .

« وتبین لکم ، عن طریق المشامدة وتواتر الأخبار .
« کیف فعلنا بهم ، من الإهلاك والتدمیر بسبب کفرهم وفسوقهم .
« وضرینا لکم الأمثال ، بما فعلوه وبما فعلناه بهم ، عن طریق کتابنا .
وعلی لسان رسولنا محمد - صلی الله علیه وسلم - .

وكان من الواجب علیکم بعد کل ذلك أن تعتبروا وتتعضوا وتثوبوا
إلی رشدکم ، وتدخلوا فی الإسلام ، ولکنکم کنتم قوما فاسقین ، سائرین علی
نهج هؤلاء المهلكین فی الکفر والفجور ، فالیوم ذوقوا العذاب بسبب جحودکم
للحق فی الدنیا .

قال الإمام ابن کثیر عند تفسیره لهذه الآیة : « أي : قدرأیتم وبلغکم
ما أحللتنا بالأمم الممکنة قبلکم ، ومع هذا لم یکن لکم فیهم معتبر ، ولم یکن
فیما أوقعنا بهم مزدجو لکم .

قال - تعالی - « حکمة بالغة فما تغنی الذر ، (١) »

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لو نأخر من ألوان نراقهم في الكفر والجحود فقال . وقد مكروا مكرم وعند الله مكرم .

والمكر : تبیت فعل السوء بالغیر وإضماره ، مع إظهار ما يخالف ذلك . وانتصب « مكرم » الأول على أنه مفعول مطلق لمكروا ، لبيان النوع ، والإضافة فيه من إضافة المصدر لفاعله .

أى : أن هؤلاء الظالمين جاءتهم العير فلم يعتبروا ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم مكروا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - مكرم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق ، وإحقاق الباطل ، والذى كان من مظاهره محاولتهم قتل الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله (وعند الله مكرم) أى : وفى علم الله - تعالى - الذى لا يغيب عنه شىء - مكرم ، وسيجازيهم عليه بما يستحقونه من عذاب مهين .

وقوله - تعالى - (وإن كان مكرم لتزول منه الجبال) قرأ الجمهور (لتزول) - بكسر اللام على أنها لام الجحود والفعل منصوب بعدها ، بأن مضمرة وجوبا ، و (إن) فى قوله (وإن كان مكرم) نافية بمعنى ما .

والمعنى : ولقد مكر هؤلاء الكافرون مكرم الشديد الذى اشتهروا به ، وفى علم الله - تعالى - مكرم ، وما كان مكرم - مهما عظم واشتد - لتنتقل منه الجبال عن أماكنها ، لأنه لم يتجاوز مكر أمثالهم من دمرناهم تدميرا .

وعلى هذه القراءة يكون المقصود بهذه الجملة الكريمة ، الاستخفاف بهم ومكرم ، وبيان أن ما يضمرونه من سوء ليس خافيا على الله - تعالى - ، وإن يزلزل المؤمنون فى عقيدتهم ، لأن إيمانهم كالجبال الراسية فى ثباته ورسوخه . وقرأ (السكاني) (لتزول) - بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، ورفع الفعل بعدها - (إن) مخففة من الثقيلة .

فيكون المعنى : وقد مكروا مكرم ، وعند الله مكرم ، وإن مكرم من

الشدة بحيث نزول منه الجبال وتنقطع من أما كتبها ، لو كان لها أن نزول أو تنقطع .

وعلى هذه القراءة يكون المراد بهذه الجملة المكرمة التعظيم والتمويل من شأن مكرم ، وأنه أمر شنيع أو شديد في بابه ، كما في قوله - تعالى - : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتتشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ... » (١)

وقوله : سبحانه - : « فلا تحسبن الله يخلف وعده رسله ... » (تفريع على ما تقدم من قوله - تعالى - (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ...) وتأكيده لتسليمة الرسل - صلى الله عليه وسلم - ولتثبيت يقينه .

وقوله (يخلف) اسم فاعل من الإخلاف ، بمعنى عدم الوفاء بالوعد وهو مفعول ثان لتحسب والمراد بالوعد هنا : ما وعد الله - تعالى - به أنبياءه ورسله من نصره إياهم ، ومن جعل العاقبة لهم .

قال - تعالى - (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا . ويوم يقوم الأشهاد) (٢) .

وقال - تعالى - (كتب الله لأغلبن أفا ورسلى إن الله قوى عزيز) (٣) . والمعنى : لقد وعدناك أيها الرسول الكريم - بعذاب الظالمين ، وأخبرناك بجانب من العذاب الذى سيحل بهم يوم القيامة ، وما دام الأمر كذلك فثبت على الحق أنت وأتباعك ، وثق بأن الله - تعالى - لن يخلف ما وعدك به من نصر على أعدائك .

قال صاحب المكشاف : فإن قلت : هلا قيل يخلف رسله وعده ، ولم قدم المفعول الثانى - لمخلف وهو : وعده - على المفعول الأول - وهو رسله - ؟

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ - ٩٠ .

(٢) سورة غافر الآية ٥١ (٣) سورة المجادلة الآية ٢١ .

قلت : قدم الوعد ليعلم أنه - سبحانه - لا يخلف الوعد أصلاً ، كقوله - تعالى - (إن الله لا يخلف الميعاد) .

ثم قال (رسله) ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلفه مع رسله الذين هم خيرته وصفوته من خلقه . . . (١) ؟

ويرى صاحب الانتصاف أن تقديم المفعول الثاني هنا ، إنما هو للإيدان بالعناية به ، لأن الآية في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله - تعالى - به على السنة رسوله ، فكان المهم في هذه الحال تقديم ذكر الوعيد على غيره (٢) .
وقوله - سبحانه - « إن الله عزيز ذو انتقام » ، تعطيل للنهي عن الحساب المذكور .

والعزيز : الغالب على كل شيء .

أى : إن الله - تعالى - غالب على كل شيء ، وذو انتقام شديد من أعدائه لأنهم تحت قدرته ، ومادام الأمر كذلك فإن إخلاف الوعد منتف في حقه - تعالى - .
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض العلامات التي تدل على قرب قيام الساعة فقال - تعالى - : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار » .

والظرف : يوم ، متعلق بمحذوف تقديره أذكر .

وقوله « تبدل » من التبدل بمعنى التغيير ، وهذا التغيير والتبدل لهما قد يكون في ذاتهما كما في قوله - تعالى - « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . . . » (٣)

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٨٤ :

(٢) حاشية الانتصاف على الكشاف ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٣) سورة النساء الآية ٥٦ .

وقد يكون في صفاتهما كقولك بدأت الحلقة خاتما ، وقد يكون فيهما
معا وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لهذه الآية
الكريمة فقال . . . : وقال الإمام أحمد ، حدثنا محمد بن عدي ، عن داود ، عن
الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة أنها قالت : أفا أول الناس سأل رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - عن هذه الآية يوم تبدل الأرض . . . ، قالت : قلت :
أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على الصراط . . .

وفي رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لها : لقد سألتني عن شيء
ماسألني عنه أحد من أمي ، ذاك أن الناس - يومئذ يكونون - على جسر جهنم ،^(١)

والمعنى : أذكر - أيها العاقل - لتتدب وتعتبر يوم يتغير هذا العالم
المهمود بعالم آخر جديد ، يأتي به الله - تعالى - على حسب إرادته ومشيئته
ويوم يخرج الخلائق جميعا من قبورهم ليستوفوا جزاءهم ، وليجازوا على
أعمالهم ، من الله - تعالى - الواحد الأحد ، الذي قهر كل شيء وغلبه ،
ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب ،

وختمت الآية الكريمة بهذين الوصفين لله - تعالى - ، المراد على المشركين
الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى يشركونها معه في العبادة ، ويتوهمون أن هذه
الآلهة سوف تدافع عنهم يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما سيحل بالمجرمين يوم القيامة من عذاب
عنيف مهين يناسب إجرامهم وكفرهم فقال : وترى المجرمين يومئذ مقرنين
في الأصفاد . سرايبهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، .

وقوله «مقرنين» جمع مقرن ، وهو من جمع مع غيره في قرن ووثاق
واحد يربطان به .

والأصفاد : جمع صفة - بفتح الفاء - وهو القيد الذي يوضع في الرجل ،
أو الغل - بضم الغين - الذي تضم به اليد والرجل إلى العنق .

(١) راجع تفسير ابن كثير - ج ٤ ص ٤٣٧ .

والسراييل : جمع سربال وهو القميص .

والقطران : مادة حارة فتنة شديدة الاشتعال تصلى بها جلود الإبل الجربي ،

ليزول الجرب منها .

أى : وترى - أيها العاقل - المجرمين في هذا اليوم العسير عليهم ، مقرنين في الأصفاد ، أى : قد قرب بعضهم مع بعض ، وضم كل قرين إلى من يشبهه في الكفر وفي الفسوق وفي العصيان ، وقد قيدوا جميعا بالأصفاد والقيود والأغلال .

قال - تعالى - : احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ،... (١) أى : وأمثالهم من العصاة ، فعابد الصنم يكون مع عابد الصنم ، وشارب الخمر مع شارب الخمر . ويصح أن يكون اقترانهم مع الشياطين كما قال - تعالى - : وفوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جهنم (٢) .

هذا عن مشهد المجرمين وهم مقرنون في الأصفاد ، وهو مشهد مهين مذل ولكنه ليس كافيا في عقابهم ، بل يضاف إليه أن سلابهم من قطران ، ليجتمع لهم لذعه ، وقبح لونه ، وفتن ريحه ، وسرعة اشتعاله ، وفوق كل ذلك فإن وجوههم تعالوا وتحيط بها النار التي تستعر بأجسادهم المسرولة بالقطران .

وخص - سبحانه - الوجوه بذنوب النار لها ، ليكونها أعز موضع في البدن وأشرفه وقوله - سبحانه - : ليجزى الله كل نفس ما كسبت ، متعلق بمحذوف ، والتقدير : فعل ما فعل - سبحانه - من إنابة المؤمنين ، ومعاينة المجرمين ، ليجازى كل نفس بما تستحقه من خير أو شر ، دون أن يظلم ربك أحداً .

وقوله : إن الله سريع الحساب ، أى : إنه - سبحانه - سريع المحاسبة لعباده ، لأنه لا يغلغل شأن عن شأن ، بل جميع الخلق بالنسبة لقدرة كالنفس الواحدة .

(١) سورة الصافات الآية ٢٢ (٢) سورة مريم الآية ٦٨

قال - تعالى - « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة... » (١) .
ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - « هذا بلاغ للناس
ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكروا أولي الألباب » .
واسم الإشارة « هذا » يعود إلى ما أنزله الله - تعالى - من قرآن في هذه
السورة وفي غيرها . و « بلاغ » مصدر بمعنى التبليغ .
والانذار : التخويف من سوء عاقبة ارتكاب الشرور والآثام .
والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شيء ، والمراد بها العقول .
أى : هذا انقرآن الكريم الذي أنزلناه عليك يا محمد ، فيه التبليغ الكافي
لهداية الناس ، وفيه ما يخوفهم من سوء عاقبة الكفر والفسوق والعصيان ، وفيه
ما يجعلهم يعلمون عن طريق توجيهاته وهداياته ودلائله ، أن الله - تعالى - واحد
لا شريك له ، وفيه ما يجعل أصحاب العقول السليمة يتعظون ويعتبرون ، فيترتب
على ذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وخص - سبحانه - بالتذكير أولى الألباب ، لأنهم هم الذين ينتفعون
بهداية القرآن الكريم ، أما غيرهم فهم كالأنعام بل هم أضل .
وقد رتب - سبحانه - في هذه الآية الكريمة ، وسائل الدعوة إلى الحق
ترتيباً عقلياً حكيماً ، فبدأ بالصفة العامة وهي التبليغ ، ثم ثنى بما يعقب ذلك من
إنذار وتخويف ، ثم نكث بما ينشأ عنهما من العلم بوحداية الله - تعالى - ، ثم
ختم بالثناء على أصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بما يسمعون وبما يبصرون .

قال الإمام الرازي : هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ، ولا منقبة
له ، إلا بسبب عقله ، لأنه - تعالى - بين أنه إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما
بعث الرسل ، لتذكير أولى الألباب... » (٢) .

(١) سورة لقمان الآية ٢٨

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٩ ص ١٥٠

وبعد : فهذه سورة إبراهيم - عليه السلام - ، وهذا تفسير لها .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وأفس نفوسنا، وشفيعا
لنا يوم نلقاه - تعالى - .

كما أسأله - عز وجل - أن يجعل أعمالنا وأقوالنا خاصة لوجهه الكريم ،
ونافعة لعباده والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ؛ وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة : مساء الجمعة ٤ من ربيع الثاني سنة ١٤٠٢ هـ
٢٩ من يناير سنة ١٩٨٢ م

محمد سيد طنطاوي

رئيس شعبة التفسير - بالدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية - المدينة المنورة

فهرس إجمالى لتفسير سورة إبراهيم

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٣	مقدمة	
٩	الر . كتاب أنزلناه	١
	الله الذى له ما فى السموات	٢
	الذين يستحبون الحياة الدنيا	٣
	وما أرسلنا من رسول	٤
١٧	واقعد أرسلنا موسى	٥
	وإذ قال موسى لقومه	٦
	وإذ تأذن ربكم	٧
	وقال موسى أن تكفروا	٨
٢٨	ألم يأتكم نبأ الذين	٩
	قالت رسلمهم أفى الله شك	١٠
	قالت لهم رسلمهم إن نحن	١١
	ومالنا أن لا نتوكل على الله	١٢
٤٠	وقال الذين كفروا الرسلمهم	١٣
	ولنسكننكم الأرض من بعدهم	١٤
	واستفتحووا وخاب	١٥
	من وراءه جهنم وبقي	١٦
	يتجر عدو لا يكاد يسبغه	١٧
٤٧	مثل الذين كفروا برهمم	١٨
	ألم تر أن الله خلق السموات	١٩
	وما ذلك على الله بعزير	٢٠
	وبرزوا لله جميعا	٢١
	وقال الشيطان لما قضى الأمر	٢٢

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
	وأدخل الذين آمنوا	٢٣
٦١	ألم تر كيف ضرب الله	٢٤
	توتى أكلها كل حين	٢٥
	ومثل كلمة خبيثة	٢٦
	يثبت الله الذين آمنوا	٢٧
٦٧	ألم تر إلى الذين بدلوا	٢٨
	جهم يصلوننا	٢٩
	وجعلوا لله أندادا	٣٠
	قل لعبادي الذين آمنوا	٣١
	الله الذي خلق السموات	٣٢
	وسخر لكم الشمس والقمر	٣٣
	وآتاكم من كل ما سألتموه	٣٤
٧٨	وإذ قال إبراهيم رب اجعل	٣٥
	رب إنهن أضللن كثيرا	٣٦
	ربنا إنى أسكنت من	٣٧
	ربنا إنك تعلم ما نخفي	٣٨
	الحمد لله الذي وهب لي	٣٩
	رب أجعلني مقيم الصلاة	٤٠
	ربنا اغفر لي ولوالدي	٤١
٨٩	ولا تحسبن الله غافلا	٤٢
	مطمئنين مقنعين زه وسهم	٤٣
	وأنذر الناس يوم	٤٤
	وسكنتهم في مساكن	٤٥
	وقدمكروا مكرم	٤٦
	فلا تحسبن الله يخلف	٤٧
	يوم تبدل الأرض	٤٨

الصفحة	الآية للامسرة	رقم الآية
	وترى انجر مين يومئذ	٤٩
	سرا بليهم من قطران	٥٠
	ليجزى الله كل نفس	٥١
	هذا بلاغ للناس	٥٢

رقم الإيداع ٤٠١٠١ / ١٩٨٤